مقام العقل في الإسلام

د. محمد عمارة
فكرة العقل في الإسلام

تأليف
دكتور
محمد عمارة
تقديم

إن المشهد المعاصر، إزاء "العقل والعقلانية"، محدودًا وعالميًا، يشهد بتعدد المواقف وأحيانًا تناقضها، إزاء العقل والعقلانية، سواء في الموقف المبدئي، أو في المقصود والمراد من هذه المصطلحات.

وإذا شننا تصنيفًا إجمالًا للمواقف والمذاهب المعاصرة إزاء "العقل والعقلانية"، فإننا نجد:

1- تيارًا نصوصيًا يقف أصحابه عند ظواهر النصوص، ويتنارون للنظر العقلي، بل ينطلقون بين "العقل" وبين "الهوى"، كما لا يميزون بين مفاهيم "العقل والعقلانية" لدى مختلف المذاهب والفلسفات والديانات والحضارات.

2- تيارًا واثقًا ينطلق من النصوص. لكنه أقرب إلى "الغنوسيَّة البنطسية" التي اعتمدت على "العدس" دون العقل والنقل والتجارب الحسية. ولذلك تنكر هذا التيار البنطسكي للعقل والعقلانية، كما اعتمد في التعامل مع النصوص الشرعية، على التأويل العقلي، الذي لا ينضبط ببسبواب اللغة وثوابات الاعتقاد والمحكم من النصوص.

3- تيارًا حداثيًا غريبًا له امتدادات متغيرة في واقعنا العربي والإسلامي، ذهب إلى تأليف العقل، فجعل شعوره: "لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده".

وذلك أضف على سلطان العقل وقدراته طابع "الإطلاق"، مخالفًا بذلك دعوته إلى "النسبية"، التي أراد لها أن تشمل الوحي والدين.

ولقد قاد هذا "الغور العقلاني" هذا التيار التجريبي إلى محاصرة النص الديني الإسلامي، واقتحام معركة وهمية بين "العقل والنقل"، وذلك تقليدة لما
عرفته المسيرة الحضارية الغربية، دون إدراك للتماثل الدينى والحضاري الإسلامي، الذي جاء "العقل" فيه معجزة عقلية، والذي تقرر لغته العربية أن المقابله لـ"العقل" ليس "العقل" وإنما هو "الجون".

4- تيار ما بعد الحداثة: الذي يحاول التمدد على أنقاض الحداثة الغربية، داعيًا إلى تفكيك منظوماتها و المسلماتها الحكيمة حول "العقل" و"العلم" و"التقدم"، والذي لا يقدم للإنسان سوى "العدمية" و"الفوضية" - ذات المنطق فات التلقودية! - التي تحكم الإنسان بالشك العبث في كل شيء، ومن ثم تحرم من أي لون من ألوان "الأمل" و"الطمأنينة" و"اليقين"!

5- أما التيار الخامس: الذي يتميز مواقفه إزاء "العقل والعقلانية" فهو تيار الوسطية الإسلامية، الذي يقيم عقلانيته على كتابي "الوعي" و"الوجود"، على نور الشرع ونور العقل، لتكون عقلانيته هذه عقلانية مؤمنة متوازنة، العقل فيها هو الأساس، والدين فيها هو البناء على هذا الأساس المتين من الفقه والوعي بالشرع الذي نزل به الروح الأعلى على قلب الصادق الأمين - عليه الصلاة والسلام -

وفي هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه -

1- دراسة عن العقل والعقلانية في الإسلام.. وتراثه.. وخارج إطار الإسلام.

2- ونصوص تراثية - قديمة وحديثة - تمثل نماذج لديوان العقلانية في تراث الإسلام.. إنه إسهام يحاول إبراز معالم هذه القضية، التي تمثل المدخل الأساسي والشرط الأول لحسن التعامل مع الدين والدنيا.. ومن ثم المنهج العلمي الذي تجدد به ديننا الإسلامي لتجدد به دنيا المسلمين.

والله نسأل أن ينجح بهذا الكتاب، وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.. إنه

- سبحانه- خير مستول وأكرم مجيب.

القاهرة في غرة المحرم سنة 1428 هـ

20 يناير سنة 2007 م.
القسم الأول

1- العقل.. ماذا يعني؟
2- حال العقل والعقلانية عند ظهور الإسلام
3- التبلور المبكر للعقلانية الإسلامية
4- مكانة العقل والعقلانية في تراث الإسلام
5- تراجع العقلانية الإسلامية
6- عقلانية الأحياء الإسلامي الحديث
العقل : ماذا يعني؟

على حين اتجهت الفلسفة الغربية - في طورها اليوناني - إلى اعتبار العقل «جوهرًا مجردًا عن المادة، قائمًا بنفسه».

واتجهت فلسفة الحادثة الغربية - التي هي إحياء للفلسفة الإغريقية اليونانية - إلى اعتبار «الوعي» نشاطا مادياً، هو انعكاس للدماغ، الذي حسبه العقل، ومن ثم جعلت «العقل.. والعقل» مادة. وذلك حتى لا يكون هناك شيء في الإدراك والمعرفة غير الحس والمنسوب والحواس.. وقال هابسب - توماس هـ - [1825 - 1895م].

يبدو أن الوعي متصل بالآليات الجسم كنقطة ثانوية لعمل الجسم لا أكثر، وأنه ليس له أي قدرة كأول على تعطيل عمل الجسم، مثلما يلازم صغير البخار حركة القاطرة دون تأثير على آليةها.

وقال - أيضًا - في سياق الادعاء بهذه المادية الميكانيكية: إن الأفكار التي أعبر عنها بالنطق، وأفكار فيما يتعلق بها إنما هي عبارة عن تغيرات جزيئية ...

وبهذا التوجه المادي، في تعريف العقل والعقل، وصلت هذه الفلسفة الغربية - في قسمتها الرئيسية - إلى «الدراية» القائلة بـ\"فناء التفكير والإبادة مع فناء الدماغ\" (1).

على حين نحن تحت الفلسفة الغربية - قديمًا وحديثًا في قسمتها الرئيسية - هذا النحو المادي في تعريف العقل والعقل والعقلانية.. لأن الطور الإغريقي لهذه الفلسفة كان العقل فيه بلا نقل ولا وحي سماوي.. لأن طورا الحديث كان العقل

فيه ثورة على اللاهوت الكنسي اللاعقلاني. فلقد كان اتجاه الإسلام والمسلمين
في تعريف العقل والعقلانية مغايراً ومثيراً.

فالعقلانية الإسلامية نابعة من الدين. ولن تستغرق عن الدين، ولا هي ثورة عليه.
والمؤسس لمثل هذه العقلانية الإسلامية هو القرآن الكريم - الكتيب
المؤسس للدين والأمة والدولة والحضارة في تاريخ الإسلام - ورسالة العقل
والعقلانية هي الانتصار للإسلام، وليست الثورة على هذا الإسلام.

بسبب من هذا التماس وامتياز العقلانية الإسلامية عن العقلانية الغربية
تميز التعريف الإسلامي للعقل. فقال جماع علماء الإسلام - من المتكلمين
والفقهاء:

«إن العقل ملكة وغيّرة ونور وفهم وبصرة، وهمها الله - سبحانه وتعالى -
للإنسان.»

ولذلك، فهو ليس عضو ولا حاسة من الحواس. أي أن وجوده في الأدمان لا
الأعيان. وهو المستوى الأولي - في الابدراك - لما فوق الحواس...»

ولأن القرآن الكريم قد استخدم مصطلح «قلب» للتعبير عن «العقل». كان
انجاح جماع علماء الإسلام إلى أن العقل مقوله القلب. لا يعني العضلة
الصغرية، وإنما يعني «جوهر الإنسان». مثليهم بالقرآن الكريم: «أفلّم
يئزروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها» [الحج: 420]

إنّه: «نور معنوي في بطن الإنسان، يبصر به القلب - أي النفس
الإنسانية - المطلوب، أي ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكّره بتوحّف الله تعالى
بعد انتهاء درك الحواس، ولهذا قبل: بداية العقول نهاية المحسوسات (1). وهو نور
في القلب، يعرف الحق والباطل (2). والعقل هو ما يعقله بقلبك (3). وهو نور
الغيّرة، مع التجارب يزيد، ويقوى بالعلم والحلم» (4).

(2) الجرجاني [التعريفات] طبعة القاهرة سنة 1988 م.
(3) ابن منظور [ال insan العرب] طبعة دار المعارف القاهرة - سنة 1981 م.
(4) الحائر المحاسبي [طبقات النافعية] - وفق نظر عن: حسين الغوثي - مقدمة تحقيق [العقل وفهم القرآن]
هكذا تميز التعريف الإسلامي للعقل والعقلانية - فعل التعقل - منذ انتقاص النور القرآنى، الذي جعل العقل نورًا من أنوار الله يزامل هذا الدين الحنفى، ويمثل بالنسبة له أداة الفهم وقاعدة التأسيس.

ويبسبب من هذا التأسيس الدينى للعقل والعقلانية في الفلسفة الإسلامية والحضارة الإسلامية. كانت مهمة العقلانية الإسلامية هي الدفاع عن الإيمان الإسلامي بالمنطق العقلاني، الداعم للوحي الإلهى والعقل الإسلامي. فشاعت في مصادر الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي عبارات من مثل:

"ما عُرف الله إلا بالعقل ولا أطيع إلا بالعلم." (1)

وحتى الصوفية المسلمين «فإنهم بالعقل رغبوا ورهبوا وذهروا وانتقلوا إلى الرشد وعلوا به في الدرجات. وكل شئ جهوه، وجوهر الإنسان عقله، وجوهر عقله توفيق الله. وكل زاهد زده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر قوة إيمانه.» (1)

ولهذا التمييز الإسلامي، في تعريف العقل ووظيفة العقلانية، تميزت وظيفة الحكمة والفلسفة في الإسلام عنها في الحضارة الغربية.

ففي الغرب، كانت الفلسفة في الحقبة اليونانية بديلاً عن الوحي والدين السماوي. بينما كانت في الحقبة الحديثة - منذ النهضة الأوروبية - ثورة على اللاهوت والدين.

أما في النسق الفكرى والحضاري الإسلامي، فإن الصواب صوابان:

1- صواب النبوة والرسالة: الذي جاء به نبأ السماء العظيم.

2- وصواب العقلانية: الذي تبدعه الحكمة الإنسانية والعقل الإنساني.

والتأكيد على هذه الحقيقة من حقائق تميز العقلانية الإسلامية، شاعت في مصادر التراث الإسلامي الصياغات الفكرية التي تقول:

"إن الله - عز وجل - في خلقه رسولين:" (1)

(1) الحكاء المستقبلي [الوصايا] ص 86، ورسالة المستقبليين ص 45 - والنقل عن المرجع السابق.
أحدهما: من الباطن، وهو العقل.
والثاني: من الظاهر، وهو الرسول.
ولا سبيل لأحد إلى الانتقاع بالرسول الظاهر مالم يتقده الانتقاع بالباطن.
فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاها لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أصل الله من يشتك في وحدانيته وصحة نبوة أنيبياته على العقل، فأمره بأنه يفزع إليه في معرفة صحته.
فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين بابيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حانًا، واجتماعهما -كما قال الله تعالى-: "نورًا على نور".[النور: 32]
هكذا تميز تعريف العقل، وتميزت وظيفة العقلانية في النسق الفكري والفلسفي بحضارة الإسلام.

* * *
غير التعبير عن هذه الغريزة والملكية النورانية بلفظ "العقل"، الذي ورد في القرآن الكريم في سبع وأربعين آية-، عبر القرآن الكريم عنها بعدد آخر من المصطلحات منها:
وفي التعبير عن العقل بمصطلح القلب جاءت الآيات القرآنية في مائة واثنين وثلاثين موضعًا. وهذا الجمع القرآناني بين مصطلح "العقل" و"القلب" في التعبير عن هذه الملكة والغريزة إشارة إلى جمع الإسلام -في فلسفة وثقافته- بين "قوى القلب وعقل العقول" على النحو الذي يبرئ الفكر الإسلامي من الفصام النكذ بين "الخبراء" الذين لا قلوب لهم و"الفقهاء" الذين لا عقول لهم! "لقد أنزلنا هذا القرآن على جبل لرآيته خشيًا متصدعاً من خشية الله" [الإسراء: 21] إنما يخشى الله من عباده الغفلة".[فاطر: 28]

(1) التأليف العربي نجيب د. أبو كريم النوري، في مكانة النور في مكارم التزكية، ص 270. تحقيق: د. أبو البزيد العجسي. طبعة القاهرة سنة 1987 م.
أما الذين يقررون القرآن دون أن تعقله قلوبهم - أي «لا يجاوز تراقيهم» (1) فبأنهم يمرون من الإسلام كما يمرون السهم من الرمية - كما يقول رسول الله ﷺ: رواه البخاري ومسلم.

واللباب: ولب كل شيء ولبابه نفسه وحقيقةه وخالصه وخيره. ولب العقل:

ولب الرجل: ما جعل في قلبه من العقل (2). واللب: هو العقل، سمي بذلك لأنه يمثل جوهر الإنسان وحقيقةه (3).

ولقد ورد التعبر عن العقل بمصطلح «اللب» في القرآن الكريم في ست عشرة آية من آيات القرآن الكريم.

3- والتهي: جمع تهية. وهو العقل وقد سمي العقل بذلك لأنه ينهي عن القبيح (4). ولأنه ينتهي إلى ما أمر به ولا يعذب أمره (5).

ولقد ورد التعبر بالتهي عن العقل في آيتين من آيات القرآن الكريم.

4- والفكر والتذكر: «أي التأمل. وترتيب الأمور المعلومة لتوذي إلى المجحلة».

وتصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب. والسراج في القلب الذي يرى به خيره وشره ومنافعه ومضراته. ومصباح الاعتدام ومفتاح الاختيار. ومزرعة الحقيقة ومشرعة الشريعة (6).

ولقد ورد التعبر بالفكر والتذكر عن العقل في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعًا.

5- والفقه: الذي هو «التوصل إلى علم الغائب عن علم الشاهد» (7).

ولقد وردت صمته في القرآن الكريم - تعبيرًا عن العقل والتعقل - في عشرين موضعًا.

_____________________
(1) الترقبة: مقدم الحلقات في أعلى الصدر.
(2) [السان العربي].
(3) [معجم ألفاظ القرآن الكريم] - وضع مجمع اللغة العربية. طبعة القاهرة سنة 1970.
(4) [معجم ألفاظ القرآن الكريم].
(5) [السنجري].
(6) [التخريبات].
(7) [معجم ألفاظ القرآن الكريم].
6 - والتدبر: "بمعنى التأمل والتعقل والنظر والتفكير في أدبار الأمور وعواقبها" (1).

ولقد ورد هذا المصطلح -تعبيرًا عن العقل والتعقل- في القرآن الكريم في أربع آيات.

7 - والاعتبار: "بمعنى الاستدلال بالشيء على الشيء.. والتدبر والنظر والقياس" (2).

وقد ورد التعبير بهذا المصطلح عن العقل والتعقل في القرآن الكريم في سبع آيات.

8 - والحكمة: "التي هي الصواب في غير نبوة.. ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. وكل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل.. وإحكام الأشياء واتقانها" (3).

ولقد ورد التعبير بالحكمة عن الصواب العقلاني بالقرآن الكريم في تسع عشرة آية من آيات القرآن..

فإذا أضفنا إلى هذه الآيات القرآنية التي تحدثت صراحة وبالتفصيل عن العقل ومترادفاته وهي التي بلغت مائتين وسبعة وستين آية - [267] - مئات الآيات القرآنية التي تستخدم المنطق العقلاني في المحاورة والمنطقية والاستدلال والإقناع، وفي تفسير حجج الخصوم، وذلك دون أن تذكر مصطلحات العقلانية بألغازاتها: وذلك مثل:

"أgn كgn فيهَا آلهَةَ إلاِّ اللَّهُ لَقَدْ سَأَلَناَ [الأنبياء: 22]."

"أولَىَّنَ الذي خلق السماوات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم" [يس: 81].

"أَلْبِينَ اللَّهُ يَكُونَ عَبْدًا [الزمر: 36]."

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر السابق. [الإنسان الغريب]
(3) المصدر السابقين.
وَجَعَتْ لَهَا طَائِلُ وَنَبِيِّهَا خَلَقَهَا فَالَّذِي يُبِينُ العِظَامَ وَهُوَ رَبُّكَ [يس: 87]. وَكَذَٰلِكَ لَمْ يَنْتَهِي، أَوْلَى مَرْأَةٌ وَقَالَتْ لَخَلَقَ غَلِيمٍ [يُوسُف: 19]. وَوَاعِرَهَا.. وَكَثِيرَهَا.. الكَثِيرَهَا. الكَثِيرَهَا. وَنَتَّفِقُ الْبَيَانُ وَعَدُودُهُ،`
إِذَا أُضْفَنَا إِلَيْهِمَا، وَأُذُنَّبَنَا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبَنا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبْنَا إِلَيْهِمَا، وَنَنْفَعُ مَنْ كَانَ مُتَّقِنًا وَمُتَّقَنًا، وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا.
إِذَا أُضْفَنَا إِلَيْهِمَا، وَأُذُنَّبَنَا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبَنا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبْنَا إِلَيْهِمَا، وَنَنْفَعُ مَنْ كَانَ مُتَّقِنًا وَمُتَّقَنًا، وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا.
إِذَا أُضْفَنَا إِلَيْهِمَا، وَأُذُنَّبَنَا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبَنا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبْنَا إِلَيْهِمَا، وَنَنْفَعُ مَنْ كَانَ مُتَّقِنًا وَمُتَّقَنًا، وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا.
إِذَا أُضْفَنَا إِلَيْهِمَا، وَأُذُنَّبَنَا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبَنا إِلَيْهِمَا، وَأَذَهَّبْنَا إِلَيْهِمَا، وَنَنْفَعُ مَنْ كَانَ مُتَّقِنًا وَمُتَّقَنًا، وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا. وَكَثِيرًا.
حال العقل والعقلانية عند ظهور الإسلام

عندما بُزِع فجر الإسلام - في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي - كان اللاهوت الكنسي للنصرانية الغربية قد أدخل العقلانية اليونانية في دائرة المعارض، ودخل بالدولة الرومانية والحضارة الأوروبية في عصورها الوسطى والظلمة!

لقد تمكنت "الغنوسيّة الباطنية" من إفساد هذا اللاهوت بعفائع التشبيه والتجسيد والحلول والاتحاد، التي أخرجته عن التوحيد الذي جاء به المسيح عليه السلام.

وكانت الثقافة الهلنئية التي أحلها الاستعمار الروماني في الشرق - بطبيعتها الغنوسيّة - وشوانها اليهودية - عاملاً آخر من عوامل التشويه والتشويش التي ملأت المسيحية والأسرار والألغاز، التي غدت مستعصية على الفهم بالنسبة لِرجال اللاهوت، فضلاً عن العامة والجمهور.

ولقد دفعت الخلافات الحادة والعميقة بين كنائس النصرانية حول "طبيعة الرب" إلى صراعات وألوان من الاتهامات بالهرطقة. وضروب من الاضطهادات مازالت الكنيسات الشرقية تترعرع بها وتضرب بها الأمثال حتى هذه الأيام!

وكان الانقسامات والاضطهادات أبوابًا للفساد الذي دب في القيادات الكنسية، والجهل الذي خيم على كثير من رجالات اللاهوت. الأمر الذي أدخل اللاهوت النصراني في أزمة حادة، جعلته عدوًا للعقلانية والعقل. وداعيًا إلى حصار العلم في الإنجيل - الذي لا يعدو كونه مجموعة من الوصايا الصوفية ذات الأسلوب المجازي والوعظي - ومن ثم انفتحت في الحضارة المسيحية الغربية معركة شهيرة وطويلة ومريرة بين العلم والعقلانية وبين الدين.

لقد غدت شائعة في ذلك اللاهوت شعارات ومسلمات تقول:
لا أستطيع أن أغمض عينتي، وَأَغْمَضَ عِيْنِيَكَ ثُمَّ اتَّبَعْتِنِ
وقال القديس "أغسطين" (320-394م)
"أَوُمَنَ بِهِذَا لَأَنَّهُ مَحَالٌ أَوْ غَيْرَ مَعْقُولٍ!
وقال القديس الفيلسوف - نعم الفيلسوف - "أنسيلم" (323-1009م)
يجب أن اعتقدي أولاً بما يعرض على قليل، بدون نظر، ثم اجتهدي بعد ذلك في
فهم ما اعتقديت، فليس الإيمان في حاجة إلى نظر عقل" (1).
وعبر عن هذا الخصائص الذي ساد العلاقة بين اللاهوت الكنسي وبين العقل
والعقلانية أحد القضاة - القس وهيب عطا الله - فقال:
"إن التحقيقات قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة
والمصطلحات الفيلسوفية، ولكني نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن
معقولاً" (2).

* * *

ولقد كان هذا الواقع البائس للعقل والعقلانية في اللاهوت الكنسي الغربي
والذي فرضه الاستعمار الروماني على الكنيسة الشرقية - أحد أهم العوامل التي
دخلت بالحضارة الأوروبية عصورها الوسطى والمظلمة في الوقت الذي ظهرت
فيه أنوار الإسلام، وأشرقت عقلانيته المؤمنة من شبه الجزيرة العربية.
لقد حاصرت الخلافات المسيحية تراش العقلانية اليونانية القديمة، وسجنت
مخططات هذه العقلانية في الصناديق الحديدية التي سُلسلت بالسلاسل
والاقبال، ووُضِعَت في سراديب الكنائس والكاتدرائيات.
وما بقي من هذا التراث العقلاني اليوناني في مكتبات الإسكندرية - معقله
الأخير - تعرض للسلب والنهب والإبادة التي مارستها عليه
النصرانية المصرية بدعوة وثنية هذا التراث. حتى لقد قبض بطريرك الكنيسة

(1) الإمام محمد عبد [الأعمال الكاملة] ج2 ص279. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة
1943م.
(2) د. أحمد طلبي [مقارنة الأديان] ج2 ص214.
المصرية "تيو فيلوس" [385 هـ-1285 م] حملة إحرق لكتب هذا التراث. وسحل وقت للفلاسفته.

واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، ودمّر مكتبتها وإشعال النار فيها. وطال هذه الإبادة مكتبات المعابد. وتم السحول والتمزق والحرق لفلاسفة الأفلاطونية الحديثة، وعامة الفلك والرياضيات "إناثية" [370-15 م]. وذلك فضلاً عن تحطيم التماثيل. والعبث بالآثار.(1)

ولقد كان من آثار غروب شمس العقل عن الحضارة الأوروبية. وبسبب من سيادة اللاهوت اللاعقلاني، والاضطهادات التي أوقعتها الكنيسة بالعلم والعلماء. وتحريمهما وتجريمها البحث والتجريب في الطبيعة والعلوم الكونية.

بدعوى أن "العالم والطبيعة" «دنس»: لأن مملكة المسيح خارج هذا "العالم الدنس». كان من آثار ذلك كلها أن أوروبا المسيحية لم تعرف أول فلكي "كوكبة فيوس" [1473-1543 م] إلا في القرن السادس عشر -أي بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من تدني أوروبا بهذا اللاهوت اللاعقلاني! وحتى الكتاب الذي كتبه "كوكبة فيوس" [دوران الأفلاك] صادرته الكنيسة، فلم يفرج عنه ليري النور إلا في القرن الثامن عشر للميلاد! ناهيك عن العلماء الذين سبقوا إلى المحارق.

مثل "جاليليو" [1564-1642 م] وغيره.

كان هذا هو حال العقل والعقلانية في العالم المسيحي يوم سطعت شمس العقلانية الإسلامية. حتى لقد قارن اللاهوت الإيطالي "الأبو مراتشي" [316-1700 م] بين تعقيدات اللاهوت الكنيسي وألغازه وأسراره -يومد-

وينبسو فضاء العقلانية الإسلامية ووضوحها. وجانبتهما. فقال:

لو قارن إنسان بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشري، أو التي هي -على الأقل- من الصعوبة يمكن أن تكن مستحيلة - "العقيدة المسيحية" -وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول...»

ولقد أدرك المنصفون من علماء الغرب الذين قارنوا بين عقلانية الإسلام وبين عقلانية اللاهوت الكنيسي - عند ظهور الإسلام - أن هذه العقلانية الإسلامية هي التي حولت الشرق - تحويلًا سلبيًا - من قلب للعالم المسيحي إلى قلب للعالم الإسلامي في زمن قياسي - في سرعته - لا نظير له في تاريخ التحولات الدينية الكبرى.

فكتب البروفيسور "إدوارد مونتينيه" [1856 - 1927 م] - وهو مستشرق فرنسي - ترجم القرآن إلى الفرنسية - يقول:

"إذا الإسلام في جوهره دين عقلي، وأوسع عناية هذه الكلمة من الوجوهين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة Rationalism تقييم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق. إن لحن محمد كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أسس المنطق والعقل. إن الإيمان بالله والآخرة - في الإسلام - يستقران في نفس المتدين على أسس ثابت من العقل والمنطق، ويلبصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعترىه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وفي هذا تكمن الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود الدعوة المسلمين.

وكان من المتوقع لعجينة محددة كل التحديد، خالية كل الخلل من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي - أن تمتلك، وإنها لمتلك فعلًا قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس...".

[Caetani 1869 - 1926 م] - وهو الخبير في الإسلام والدراسات الإسلامية - يقول:

"إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت..."
المسدحي، أما الشرق، الذي عرف ببحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلنئية وبالأخص على من الوجهة الدينية؛ لأنها أجاخت تعاليم المسيح
البسيطية السامية إلى عقيدته محفوظة بمذهب عوينة، مليئة بالشكوك والشبهات،
فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زرع أصول العقيدة الدينية ذاتها.
فلما أهل آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأةً من الصحراء، لم ت تعد المسيحية
الشرقية التي انتقلت بالغ وذروة وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية،
وتزعمت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوتو من مثل هذه
الرب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي
بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب
مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح، وارتمى
في أحصان نبي بلاد العرب”... 

[1753] Cunon Taylor

وكتب الفلسفة الأمريكية "جون تايلور" 184
يقول عن عقلانية الإسلام التي كانت السر في هذا الانتشار السريع
للإسلام:

"إن الله يستر أن ندرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة في
إفريقيا وأسيا. كان أئمة اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح
عقائد ميتافيزيقية عوينة: ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من
فساد بتوسيع فضل العزوبية في السماء، وسمو الياكورية إلى مرتبتة الملائكة.
فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والغذارة صفة لطهارة الربينة. وكان
الناس في الواقع مش تركين يعودون زمرة من الشهداء والقدسيين والملاكية، كما
كانت الطبقات العليا مختلطة بشع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرحقة
بالضرائب، ولم يكن للعبد أمل في خاضرهم ولا مستقبليهم، فأزال الإسلام، بعون
من الله، هذه المجموعة من الفساد والخراوات. لقد كان -[الإسلام]- ثورة على
المجادلة الجوافة في العقيدة، وحجة قوية ضد تجديد الربانية باعتبارها رأس
التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعطمتها، كما بين أن الله
رحيم عادل يدعو الناس إلى الامثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه.
وأعلن أن المرء مسؤول، وأن هناك حياة أخرى وبوما للحساب، وأعد للأشوار عقدًا
أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، ونبد الفضلئ الكاذبة.
الدجل الديني والترهات والنزاعات الأخلاقية ضالة وسفالة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية" (1).

* * *

هكذا كان المشهد العالمي - فيما يتعلق بالعقل والعقلانية - عندما ظهر الإسلام في القرن السابع للميلاد:

• لا هوت كنسيًا لعقلانيًا حاصر العقلانية اليونانية بسجنه كتبها في الصناديق الحديدية المغلقة بالأقفال، وبالإبادة والإحراق لمكتباتها وفلاسفتها.

• وخرافات وألغازًا وأسراً حولت العقائد الدينية إلى ميتافيزيقاً مستعصمية على الفهم حتى عند أهل الاختصاص.

• وهنا تألقت العقلانية المؤمنة التي جاء بها الإسلام، فبدأت بضربة من ضرباتها هذا الركاب اللاعقلاني، وكانت السبيل الأول والأفضل للدخول الناس أفواجاً في دين الإسلام - كما شهد بذلك المنصفون من العلماء الغربيين!

* * *

التبول المبكر للعقلانية الإسلامية

وإذا كان القرآن الكريم قد تحول على يدي رسول الله ﷺ والذين معه - من الجيل الفريد الذي صنعه الرسول على عينه في مدرسة النبوة - تحول إلى خلق وسجية وأمة ودولة وثقافة ومدنية وحضارة - ولم يقف عند المواضع والوصايا والصوات في المحاور، فإن العقلانية المؤمنة التي تبليت في آيات القرآن الكريم وأساليبها في المحاور والاستدلال، سرعان ما تبليت فلسفة إسلامية لها أعلامها ومدارسها وإبداعاتها منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول - في علم الكلام الإسلامي - علم التوحيد.

فكما كانت الفتوحات الإسلامية التي أزالت من الشرق القهر الحضاري للطاغوت الروماني والفارسي الذي استمر عشرة قرون قبل ظهور الإسلام - كما كانت هذه الفتوحات قياسية في سرعتها التي لا تنظر لها في التاريخ - إذ فتح المسلمون في ثمانيين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون.

كذلك كان تبليع العقلانية الإسلامية فلسفية متميزة، هو الآخر، مبكرًا في تاريخ حضارة الإسلام. لقد ضمت الفتوحات الإسلامية، في القرن الهجري الأول، دولاً وأقاليم متزامنة الأطراف - من المغرب والأندلس إلى داخل حدود الصين - واحتضنت الدولة الإسلامية شعبًا وقبائل وقوميات ولغات ومذاهب وديانات وفلسفات ومبادئ وحولًا مثل كل ألوان الطيف لعالم ذلك التاريخ.

المدني والثقافي واللغوبي والسياسي والاقتصادي الذي مارسه الروم والبيزنطيون في الشرق لعشرة قرون، وترك الناس أحرارًا—بعد هذا التحرير—وصمداً دينيًا، حتى إن الدولة التي أثمرتها هذه الفتوحات الإسلامية كانت دولة إسلامية منذ الفتح، بينما كانت نسبة المسلمين في رعيتها، بعد قرن من الفتح، وقيام الدولة الإسلامية، لا تتجاوز 20% من السكان.(1)

ولقد نتج عن هذه المعادلة: دولة إسلامية ورعاية تنظيم وتنمية وتنمية مختلف الدينات والمؤسسات الدينية، وفيها شهدت البلاد الإسلامية- وخاصة الحواضر ذات الموازنة الفلسفية والمعظمات الدينية- أوسع نشاط في الحوار الفكري بين المسلمين وغير المسلمين من النصارى، اليهود، المجوس، المانوية والثنوية والزرادشتية، ومع السمنية الذين كانوا يمثلون دهرية ذلك التاريخ، وأصحاب الفلسفة الوعيية فيه...

وفى خضم هذا الحوار الحاد، والواسع، والعميق تبلورت العقلانية الإسلامية: لأن العقل والغرد كانا السلاح الأول والأفضل في عصر الإسلام، الدفاع عن عقائده، وفي الرد على مقالات المخالفين، وفقولاتهم. لقد انتقل الإسلام- بهذه الفتوحات- إلى بيئة ذات ثقافات وأفكار فكرية مركبة. وأصبح يواجه ويجور أقوامًا لهم مواريث فلسفية، ومؤسسات لاوتاذ.. ولم يعد، كما كان الحال في شبه الجزيرة العربية، يتعامل مع بيئة بسيطة تكيف في الإجابة عن أسئلتها وعلامات استفهامها، يظهره النصوص، والمنطق القطر، هنا. وبسبب هذه المتغيرات الفكرية الجذرية، كان لا بد لانتشار الإسلام من تبلور العقلانية القرآنية في فلسفة إسلامية، رد فلسفتها على المخالفين، واستخدامها العقل والعقلانية في نشر الإسلام...

ولكي تدرك "الضرورة" التي دفعت المسلمين إلى عدم الاكتفاء بالنصوص، وإلى بلورة العقلانية التي جاءت بها وحثت عليها هذه النصوص، في صورة فلسفة تمثل السلاح المناسب للتعامل مع المذاهب والعقيدة الدينية السعودية في هذه البيئات الجديدة.. تضرب مثلين من الأمثلة التي حفظها لنا التراث في هذا المقام:

ترجمة: بشير السباعي، طبعة القاهرة سنة 1994م.
لقد تحدى زعيم «السُمَنيّة» - ببلاد السند - علماء الإسلام وطلب من ملك بلاده أن يرسل إلى هارون الرشيد [ع. 193 - 216 هـ = 776 - 799 م] متحداً، أن يرسل علماء بغداد لمناظرة زعيم «السُمَنيّة». واشترط أن يدخل المهزوم في دين المنتصر!

ولقد أرسل الرشيد كبير قضاة بغداد - وكان من أهل الحديث، الذين يقفون عند ظواهر النصوص - فلما بدأت المناقشة بينه وبين زعيم «السُمَنيّة» سألته السُمَنِ: 

- أخبرني عن معصوبك، هل هو قادر؟
- القاضي: نعم.
- السُمَنِ: فهل هو قادر على أن يخلق مثله؟
- القاضي: فلما هو قادر على أن يخلق مثله، فتتحر كبري قضاة بغداد. بماذا يجيب؟ لو قال: نعم، يجوز أن يخلق مثله، لأقرر بجواز تعدد الألثة! لو قال: لا يقدر، لأقرر بعجز الإله! فما كان منه - كي يخرج من حيرته وحجه - إلا أن قال:


- السُمَنِ: ومن أصحابك؟
- القاضي: محمد بن الحسن [ع. 132 - 113 هـ = 748-480 م] وأبو يوسف [ع. 150 - 110 هـ = 767-768 م].

وعندئذ التفت السُمَنِ إلى ملكه وقال:

- قد كنت أعلمتك دينهم، وأخبرتك بجهلهم وتقليلهم، وغلبهم بالسفين.
- وعاد كبير قضاة بغداد إلى الرشيد مهزومًا، ومعه رسالة ملك السند للخليفة، يقول فيها: "إني كنت إيمانًا وأنا على غير يقين مما حكي لي، والآن قد تبقنت ذلك بحضور هذا القاضي!"

وثرت ثانيرة الرشيد وضاقت صدره، وقامت قائامته، وأخذ يصبح:

- "أليس لهذا الدين من مناظر عنه؟"!

وكانت الدولة العباسية - يومئذ - تضطهد المعتزيلة - فرسان العقلانية الإسلامية - لميولهم العربية في الخلافة مع العلويين، ولرفضهم سيطرة الشرقية الفارسية على جهاز الدولة العباسي - فأشن نقر من حاشية الرشيد عليه بأن
علاء الكلام - المعتملة - هم القادرون على مناظرة السمنى وإلحاقه... ولو أنهم خرجوا من سجونهم، وكلفهم الخليفة بذلك، لاستطاعوا الدفاع والانتصار للإسلام. فأخضر الرشيد نفرًا من المعتملة، وعرض عليهم «مسألة السمنى» فأجابه شاب منهم - هو «معمر بن عباد» [٨٢٥هـ - ٨٢٥م] - بأن سؤل السمنى هذا محال.. فسافر إلى بلاد السند.. ودارت المناظرة على هذا النحو:

- السمنى: هل معبود؟ قادر؟
- معمرو: نعم.
- السمنى: هل يقدر أن يخلق مثله؟

وهنا - بالفلسفة، وبالمنطق العقليان - وليس بظواهر النصوص - بناءً على القلق، وانتصر الإسلام. ووضوح وتأكيد أن «العقلانية القرآنية» التي تحولت إلى «فلسفة إسلامية» في - علم الكلام الذي أسسه المعتملة - قد غدت «ضرورة فكرية» و«فرضية حضارية» لحوار أصباب المذاهب والديانات والفلسفات. وأنه بدونها لا يمكن تشر الإسلام في هذه البيئات التي أدخلتها الفتوحات الإسلامية في دولة الإسلام.

أما المثال الثاني على «ضرورة» العقلانية والفلسفة الإسلامية في الحوار مع المخالفين، فيبروي أبو القاسم البلخى [٨٢٧ - ٨٩٢م] في كتابه [مقالات الإسلاميين]. عندما يذكر كيف كان خوارج الجهم بن صفوان [٢٧٨ - ٩٥٥م] مع علماء السمنى - الوضعيين - القائلين ب«حبسية المعرفة» - أي أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة والإدراك. يقول البلخى:

ذكر أبو الحسن بن فزويه أن قومًا من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له:

- هل يخرج المعروف - [أي المعرفة] - عن المشاعر الخمسة؟
- فقال: لا.

(١) البلخى، والقاضي عبد الجبار، والحاكم الجاشنك.. فضل الاعتدال وطبقات المعتملة [٩٦٢م].
قالوا: فحدثنا عن معبودك الذي تعبده، أشيء ودجده في هذه المشاعر [أي الحواس]
قال: لا.
قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل في المجهول!
فسكت جهم!!
ولقد كتب الجهم بن صفوان - عقب عجزه هذا وهزيمته أمام علماء السمنية - بوقائع هذه المنازرة إلى زعيم المعتزلة «واصل بن عطاء» [80-131 هـ = 699-748 م].. فكتب إليه واصلاً:
«إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدلائل. فأخرج إليهم الآن وقل لهم هل تفرقون بين الحق والباطل وبين العاقل والمجنون؟ فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يعرف الدلائل لا يغيره.
هنا، في هذا الجزء من هذا النص، يقصد واصلاً عن عطاء الإضافة الفلسفية، الدلائل العقلية، الذي هو مستوى أرفع من المشاعر الحسية في سبيل المعرفة والإدراك.
فالعقل ليس مادة حتى يدرك بالحواس والمشاعر.. وكذلك الجنون.. وكذلك المورت والحياة.. فبدون الدلائل العقلية لا يمكن مناظرة أصحاب المقولات الفلسفية المخالفين للإسلام...
وبعد أن ذهب الجهم بن صفوان - مرة ثانية - إلى علماء السمنية: وقدم لهم الجواب الجديد - الذي أعلم أنه واصلاً عن عطاء - قالوا له:
ليس هذا من كلامك! فمن أين لك؟
قال: كتب إلى به رجل من العلماء، بالبصرة، يقال له: واصلاً. فخرج السمنية إلى واصلاً عن عطاء - بالبصرة - «وكلمموه، فأجابوه إلى الإسلام»!!(1)

* * *

(1) [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص 226.
هكذا. وبسبب من هذه المتغيرات الفكرية والعقلانية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد الفتحات. وبسبب هذه الفتوحات نجد تميز الفعلانية القرآنية في صورة "علم الكلام" المعبر عن فلسفة الإسلام "ضرورة فكرية" و"ضرورة حضارية" لمحاورة المخالفين، وتنوع الإسلام في الحواضر والبيئات ذات المواريث الفلسفية القديمة.

ولقد تحدث المستشرق "جب" [1856-1901م] عن تفوق هذه العقلانية في مقارنة خصوم الإسلام - ومنهم "الثنوية" الفارسية - فقال عن فرسان هذه العقلانية:

"أنتم استطاعوا أن يقارعوا الثنائية حجة بحجة، وأن يفحموه، وأن ينشؤوا الفلسفة الأخلاقية المستمدبة من القرآن" (1).

وعبارة "جب" هذه شهادة على تفوق العقلانية الإسلامية في ذلك التدافع الفكرى الكبير الذي شهدته الدولة الإسلامية بعد الفتحات. وشهادة -كذلك- على أن الفلسفة الإسلامية التي تبلورت في "علم الكلام" علم التوحيد على يد السترة وتبْوْر وصدرت من القرآن الكريم.

نعم.. لقد استطاعت سرعة الفتوحات الإسلامية التي أدخلت في الدولة الإسلامية كل ألوان الفكر والفلسفة والديانات المعروفة يومئذ، وكذلك الحرية الدينية والفكرية التي قررها الإسلام، استدعت الضرورة المبكرة لبلورة سلاح العقلانية الإسلامية، الأقدر والأفضل في الحوار مع أصحاب تلك الفلسفات والديانات...


(1) جب [دراسات في حضارة الإسلام] من 16 طبعة بيروت سنة 1964م.
فأسألونه عما يقول هؤلاء في القدر، فوافق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب باباً المسجد، فاكتشفته أنا وصاحببي، أحذتنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظنت أن صاحبي سيكل الكلام إلى، فقالت: يا أبا عبدالله، إن الله قد ظهر قيلنا ناس يقرءون القرآن، ويتفتوّرون العلم - [أي يبحثون عن غامضه، ويستخرجون خفه] - وذكرن من شأنهم - وأنهم يزعمون أنه لا قادر، وأن الأمر أنفه [أي مفوض للحرية والاختيار]...»

فمنذ عصر الصحابة، بدأ التيار العقلاني في التبلور، مثيراً عن ضرورة استخدام العقلانية الإسلامية الناجبة من القرآن الكريم للدفاع عن الإسلام في الحوارات مع الذين لا يؤمنون بالنص الديني الذي يضد به المؤمنون بالإسلام.
مكانة العقل والعقلانية في تراث الإسلام

ما يلفت النظر في تراث الإسلام شيوع الإعلاه لمقام العقل والعقلانية في تراث الأغلبية العظمى لمذاهب الإسلام. فباستثناء بعض "أهل الحديث" الذين برعوا في صناعة "الرواية" وتحفظوا كثيرًا على النظر العقلي والدراية، ومن ثم حرموا الاشتغال بعلم الكلام. فإذا واجدنا للعقلانية الإسلامية مقامًا عاليًا ومكانًا ملحوظًا ووضعًا متغيرًا ومتزايدًا في عموم تراث مذاهب الإسلام، على امتداد تاريخ هذا التراث، وعلى تنوع مذاهب أئته وأعلامه.

حدث ذلك في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. وفي عصر الأحياء والتجديد الذي بدأت به أمتنا عصرها الحديث.

وإذا شنتنا إشارات - مجرد إشارات - إلى شهادات الأئمة والعلماء الأعلام التي تعنى من مقام العقل والعقلانية، فإننا واجدنا أنفسنا أمام تراث نباهي به أمتنا من عدها من الأمم والحضارات. وعلى سبيل المثال:

1] لقد دار حوار بين الإمام على بن أبي طالب [323 هـ - 440 هـ = 623 - 749] - وبين أحد السائلين. بدأ الإمام على بقوله:

- "أسلم تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العليم العزيز؟"

- فقال السائل: بلى.

- فقال الإمام على: تعرف تفسيرها؟

- فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمى مما علمك الله.

- فقال الإمام: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله، ولا على معصيته إلا به عز وجل، يا سائل عقل عن الله.

- فقال: عقلت.
قال العقل عن الله هو دليل الإسلام:
والذي خرج تيار العقلانية الإسلامية -أهل العدل والتوحيد]- من تحت
عباءته ومن مجلس علمه فإنه هو القائل:
«ما تم دين الرجل حتى يتم عقله. وما أودع الله عز ووجل أمرًا عقلا إلا استنذذه
بما يومًا ما»...
[٣] فإذا جئنا إلى هذه المدرسة العقلية التي مثلت فرسان العقلانية الإسلامية،
والتي حاورت أصحاب المناهب غير الإسلامية -الدينية منها والفلسفية-
وردت شهاتهم. وتشربت الإسلام في الحواضر التي كانت فيها المواريث
الفلسفية القديمة والمؤسسات الدينية غير الإسلامية -وهي مدرسة المعتزلة،
أهل العدل والتوحيد.. فإننا نجد أنفسنا بإضاء عقلانية مؤمنة، أنطلقنا -ربما
أول مرة في تاريخ الفلسفة- من الدين. وجعلت مهمتها الأولى الدفاع عن
الدين بالбраهين العقلية.
وفي هذه المدرسة نجد:
■ الشك المنهجي: علمًا من العلوم. يجب تعلمه للوصول إلى اليقين. وعنه
يقول الجاحظ [١٦٣-٢٥٥ هـ = ٧٨٠-٧٨٦ م] :
"لأعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين
والحالات الموجبة له. وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلمًا، فلو لم يكن في ذلك إلا
تعرف التوقف، ثم التثبت، فقد كان ذلك مما يحتاج إليه... فلم يكون يقين قط حتى
كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال
شاك.
والعوام أقل شكوكًا من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتأكيد,
ولا يشتركون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقامة على التصديق المجرد، أو التكذيب
(1) الإسفريني [التفسير في الدين] ص ٢٨ وأنقل عن: حسين العوفي -مقدمة [العقل وفهم القرآن]
ص ١٣٦.
المجرد، وألغيوا الحالة الثالثة من حال الشك التي تشمل على طبقات الشك، وذلك
على قدر سوءظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب.(1)

فالشك المنهجي: علم من علوم العقلانية الإسلامية. وهو غير "الشك العبتي" الذي يشتكك في كل شيء -كحال عدمية ما بعد الحداثة الغربية وتفكيكها العبتي- فالشك له مواضع، وله حالات توجيه. والهدف منه هو الوصول إلى اليقين الراشذ الذي لا سبيل إليه -أحيانًا- إلا عبر هذا الشك المنهجي.

ولقد أسست هذه المدرسة الفلسفية الإسلامية هذا العلم على المنطق القرآني الذي يؤسس العقائد على الحوار المفضّى إلى اليقين.. ومثلنا لذلك بهو خليل الله إبراهيم - عليه السلام- مع ربه - سبحانه وتعالى:- (وإذ قال إبراهيم رض أرئي كتب تخلي الحوت قال أولم تؤمن قال بلى ولئن كنت نقي قال فخط أربع من الطير فصره فن، إليك تم أجعل على كل جبل منهم جزء فأذن أن تأتيك سفحا واعلم أن الله غزي حكيم).

[البقرة:276]

فمن هذا الحوار نتعلم منهج الشك: السؤال. وتأسس اليقين على التجريب.

كما استنادت هذه العقلانية الإسلامية، في تأسيس هذا الشك المنهجي، إلى منهج النبي الذي تعامل به رسول الله -، مع الذين اعتراهم الشك، وطرأت عليهم الوسواس من الصحابة، فاستعتزوا ذلك. وذهبوا إلى الرسول -، باحثين عن اليقين.

فذلك روى الإمام مسلم والإمام أحمد: "جاء ناس من أصحاب النبي -، فسألوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدثنا أن يتكلم به؟

قال -، وقد وجدتموه؟

قالوا: نعم.

قال: ذاك صريح الإيمان. محض الإيمان.

فهنا. تأسس صريح الإيمان. محض الإيمان. اليقين الإيماني عبر الشك الذي جعلوه طريقا إلى اليقين.

(1) الجاحظ [كتاب الحيوان] ج1 ص 35-37. تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة القاهرة -النانية-.
كلاً يتحدث الباحث عن هذه العقلانية الإسلامية التي جمعت - لأول مرة- بين "التوحيد والإيمان الديني" وبين "الطبقات، والأشكال الطبيعية" المودعة في الكون والاجتماع. وكيف أن هذا الجمع والتأليف هو الاعلامة على بلغة العقل والفكر درجة التمكن من "صناعة الفلسفة". يقول:

وليس يكون المتكلم جامعًا لأفكار الكلام، متمكنًا من الصناعة، يصلح للرياضة. حتى يكون من مشاري الدين في زمن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عدنا هو الذي يجمعهما، والمسير هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال ومن زون أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قررت بالتوحيد. ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع، وإنما ينص على المدلاد إذا لم يدع التفرز على التوحيد. إلى بعض حقوق الطبائع: لأن في رفع أعمى لها رفع أعمىها وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله، ففرعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه!

ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة: وأنا أوعى بسم الله تعالى أن أكون كلما غمز قناته باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركبتا من أركان مقالتي، ومن كان كذلك لم ينتفع به.) (1)

فهيما - ولأول مرة في تاريخ الفلسفة والتفسير، تتأسس فلسفة على العقلانية المؤمنة. فتجمع بين الدين وبين الفلسفة. بين التوحيد الإسلامي وبين الطبائع، معطية كل ذي حق حقه.

وفي هذا الاتجاه نفهم قول الإمام المعزول أبى على الجبانى [275 - 279، 6، 889-931 م]

"إن واجب الأول على الإنسان هو النظر.
وقول الإمام أبي هاشم الجبانى [271-271، 6، 861 - 933 م]

"إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك) (2)

فإذا جننا إلى قاضي القضاة عبدالله جبر بن أحمد العلماني [1515 - 1515، 641-1601]، وهو الذي أنتجت أعماله الفكرية مذهب الاعتزاز وعقلانيته من الضباب، وجدناه يقول:

(1) الباحث [رسائل الباحث] جزء 136، ص 34. تحقيق عبد السلام هارون، طبعة القاهرة.
(2) د. على فهمي خليفة [الجاباني: أبو علي وعلي هاشم] حسن، 693، طبعة طرابلس - ليبيا، سنة 1968 م.
إن الأدلة أولها: دلالة العقل: لأن به يميز بين الحسن والقبيح، وليس به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع.

وإلا تعبير من هذا الترتيب بعضهم، فإن الأدلة هي: الكتاب، والسنة، والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطبه إلا أهل العقل، وكذلك الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع، فهو أصل في هذا الباب. وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل، من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام.

وبالعقل يميز بين أحكام الأعمال وبين أحكام الفاعلين، ولولا لما عرفنا من يؤخذ بما يشكك أو بما يأتيه، ومن يحضر ومن يندم; ولذلك تزول المؤاخذة عنم لا عقل له.

ومثنا عرفنا بالعقل، إلا منفردًا بالإلهية، وعرفنا حكيمًا، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومثنا عرفنا مرسلا للرسول، ومميزًا له، بالآيات المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة، وإذا قال: لا تجتمع أمتي على خطأ، وعليكم بالجماعة: علمنا أن الإجماع حجة.(1)

فالعقل درجة من درجات المعرفة والإدراك تعلو على المشاعر والحواس، وبعبارة الجاحظ: فلا تذهب إلى ما تريك العين، وأذهب إلى ما يريك العقل، وللأمور حكمان: ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقل، والعقل هو الحجة.(2)

ولذلك: وانطلاقًا من هذا الإنجاز غير المسبوق: تأسيس «فلسفية - دينية» و«عقلانية - مؤمنة». انطلاقًا من هذا، نظر المستشرقون الذين فقروا هذه الحقيقة إلى هذا الإنجاز غير المسبوق بإعداد واستغراق، فقال المستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم»:

إن قوة الجهد الاعتزالية مربدة وجهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من قسمات العقيدة الدينية.(3)

(1) [فضل الاعتزاز وطبقات المتزلفة] ص 137.
(2) [كتاب العقول] ص 163. 2023.
وبعبارة المستشرق "جب":

فلقد استطاع المعتزلة أن ينشؤوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن (1).

* * *

[4] فإذا انتقلنا إلى "شهادة" أخرى لشاهد آخر هو الإمام الحارث بن أسد المحاسبي [165-244هـ = 781 - 857] الذي عاش وأبدع في القرن الثاني الهجري، والذي جمع في عقته ووجدها وإبداعه بين التصوف وعلم الكلام "الفلسفة".. والسقية - وجدنا مقام العقل عندى يتألق عاليًا.. حتى ليقول فيه:

**العقل** غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه.. ونور في القلب كالنور في العين.. يولد العبد به، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول.

والمعرفة من العقل تكون.. وهو صفة الروح.. ولقد سمى العقل ليساً، ولب كل شيء خالصه، وقال الله عز وجل: "إنهما ينكران ألو الألباب" [الزمزم: 9].

وبالعقل عرف الخلق لله، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعترفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة، وإياهما خاطب من قبل عقولهم ووعد وتوعد، وأمر، ونهى وحض وندب..

ولقد روي في التفسير لما قال الله تعالى لموسي (2): "فسأتع لي ما ينبغي" [طه: 13] "اعقل ما أقول لك".. فالفهم والبيان يسمى عقلاً: لأنه عن العقل كان.. والله عز وجل يقول: "وعي بالذن واعية" [الجاثية: 12].. أي: أذن عقلت عن الله تعالى، يعتنق عقل عن الله ما سمعته أذناه، كما قال للمؤمن:

وإذا تم عقل المؤمن عن فيه أفرده عز وجل بالتوجيه له في كل المعاني.

ولا غناء بالنعدين التفكر والنظر والذكر لتكثر اعتباره، ويزيد في علمه، ويعلو في الفضل.. فمن قل تفكره قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه وقل علمه، فمن قل علمه كثير جهله، وبان نقسه.. ولم يجد طعم البر، ولا بر البقين، ولا روح الحكمة.. فما أقره في حياته من حياة البهائم الذي لا يعرف إلا ما باشرته بجواربه.

---

(1) [دراسات في حضارة الإسلام] ص. 16.
ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبيس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأفكار، إليها يأوى كل محصول، وبها يُستدل على ما أخبر به من علم الغيب، فيها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعندها تصدر الجوارح بالفعل بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو تزجرها فتمسك عن مكروها.

ولقد استخلص الله من عباده خالصة من خلقه، فهمت عنه قوله، تعالى: «فاتسع لها ما خفي من الأفكار.»  

وأعظم العاقلين عند الله عز وجل العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الذين أروا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته..  

* * *


إنه ليس في العقل والعقل والعقل نسبي، وإنما الريب والشك والظلم والتوهم كلها من عائلة الحساب وتبوع الخلق، ولولا هذه العوارض لما أخبر وجه العقل، ولا علاج شحوت، ولبقي على نضارته وجماله وحسنها وبهجته، ولما كان الإنسان يقضي هذه الأعراض في الأول، صار يقضي هذه الأحوال في الثاني، فاستعار من العقل نوره في وصف الأشياء الجمجمية جهلاً منه وخطأ، واستعار من ظلال الحساس في وصف الأشياء الروحانية عجزًا منه ونقصًا، ولو وافق لو وضع كل شيء موضعه ونسبه إلى شكله، ولم يرفع الوضوح إلى محل الرفيع، ولم يضع الرفيع في موضع الوضوح.

ولقد قيل للنشجاني: ما العقل؟

فقال: خليفة العلاة الأولى عندك، ينابيجك عنه، وينابيجك به، ويبلغ إليه منه، ويدل على قصدته والسكن في حرمته، ويدعوك إلى مواصليته، والتوحد به، والأعتزاز إليه، والاعتزاز به...
قيل له: فقد قيل إن العقل مأخوذ من معنى العقول؟

فقال: هذا كلمة كلام مرفق ومعنى دنس، ودعوى متهافتة. وإنما يدل الاشتقاق من الكلمة على جهة واحدة في المفتوح المتناز الك، لأنه مأخوذ من تركيب الحروف، وتأليف اللفظ، وصورة المسموع، أثرينا إذا تلقنا بلغة أخرى، كالرومية والهندية، ومعنى العقل، أثرينا نريد به معنى العقول: لا والله، بل هذا المعنى مأخوذ أيضًا من صفاته، ومذكر في غرض ما ينعت به، لأن العقل يعقل، أي يمنع ويجحب، وهو أيضًا يبيح ويطلق، ويسرح ويفرغ، ولكن في حال دون حلال، وأمر دون أمر، ومكان دون مكان، وزمان دون زمان (1).

وفي القرن الثالث الهجري يقول الإمام أبو الحسن الماوردي [764-550هـ = 984-1051م]:

إن السبب المؤدي إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان:

أحدهما: علم الحسن، وهو العقل لأن حجج العقول أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول.

وثانيهما: معرفة لسان العرب، وهو معبر في حجج السمع خاصة (2). وإن لكل فضيلة أسأ، لكل أدب يتبعًا، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقول، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عمادًا، فأوجب التكلف بهمًا، وجعل الدنيا مدربة بأحكامه، وألفه به بحقه، مع اختلاف همهم وماريهم، وتبين أغراضهم ومقصدهم، وجعل لماتعدهم به قسماً وجب بالعقل، فوكده الشرع، وقسمًا جاز في العقول، فأوجبه الشرع، فكان العقول لها عماداً (3).

أما الراغب الأصفهاني [505-1108هـ = 564-1188م] الذي تألف بضبط المفاهيم لمفردات غزير القرآن الكريم، وبالتأليف في محسن الشريعة الإسلامية، ومكارمها، فإنه هو القائل عن العقول والعقلانية الإسلامية:

الله عز وجل في خلقه رسوله:
أحدهما: من الباطن، وهو العقل.
والثاني: من الظاهر، وهو الرسول.
ولا سبيل لأحد إلى الارتفاع بالرسول الظاهر مال يتقدمه الارتفاع بالباطن، فالباطن يعرف الصحة دعوى الظاهر ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحوال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها.
فالأعقل قائد، والدين مدل، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما - كما قال الله تعالى: - «نورًا على نور» [النور، 35].

* * *

[8] فإذا جننا إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي [450 5 500 5 1058 - و 1111] الذي مثل مثً من القرن الخامس الهجري وحتى الآن - ظاهرة فكرية». فّط من مبادئ الفقه، والأصول، والفلسفة، والمنطق، والكلام، والتصوف، والأخلاق، فإننا سنجد له صياغات كثيرة وديدة وعميقة - بـ "وفنية - حول مقام العقل، ودور الوسطية الإسلامية في تميز العقلانية الإسلامية المؤمنة، تميزها عن الغلو النصوصي، الذي يقف أصحابه عند الأثر، وعن الغلو العقلاني، الذي يصطنع أهل التناقضات بين العقل والشرع. وفي ذلك يقول الغزالي:
«إن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء.
ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.
فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر، في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفية بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العين.
فالأعقل مع الشرع نور على نور».

(2) الغزالي [الاقتصاد في التفكير] ص 2، طبعة - صبيح القاهرة - بدون تاريخ.
وأنى يستنب الرشاد لمن يقنع بتقليل الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟ أولاً يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر؟

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل بيهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها.(1)

وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ يهجم الإنسان، فبالحري أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: "فأعجبوا بالله ورسوله والثور الذي أنزله"(التخابان).2

وله بعد أيها المعتقد في عالم العقل - أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه مثال يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طورًا وراء التمييز والإحساس ينتهي فيه غرائب وعجبات يصير عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكلام وفقاً على نفسك،3) والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمرًا ورد الشرع بما، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده.(4)

وما قضى العقل باستحالتة، فيجب فيه تأويل ماورد السمع به، ولا يتصور أن يشتم السمع على قاطع مخالف للمعقول(5) "والوجي الإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل، وليس كل ما لم يدركه العقل محالًا في نفسه، وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ماليس بما لم يألف، والمحال مالاً يتصور كونه".(6)

(1) الغزالي [مكنكة الأنوار] ص 36 - طبعة القاهرة - ضمن مجموعة 1907 م.
(2) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص 3.
(3) [مكنكة الأنوار] ص 31.
(4) الغزالي [المضمون به على غير أهله] ص 345 - طبعة القاهرة - مكتبة الجندى ضمن مجموعة (القصر العوالي من رسائل الإمام الغزالي) بدون تاريخ.
(5) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص 172.
(6) [المضمون به على غير أهله] ص 318. 319.
ومأيا اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحقاً وقواهم على اتباعهم. ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقلية.

ولقد تحقق أهل السنة أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحقيق العقل.

وعرفا أن من ظن من الحشوية - الظاهرة - وجاب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواعط الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمان، فقيل أولئك إلى التفرط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.

* * *


إن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتعلق معرفتها به، فذلك بين

في غير ما أيّه من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى: (فاغتزوا يا أولي الأئمزة) [الحشر: 3] وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقل والشرعي معًا. فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وإذا كانت هذه الشريعة حقاً، وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإنها، معشر المسلمين، نعلم، على القطع، أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفته ما ماورده به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

ونحن نقطع قطعًا أن كل ما أدى إليه البرهان، وخلافه ظاهر الشرع، أُنذ ذلك

الظاهرة يقبل التأويل على قانون التأويل العربي. بل نقول: إنما ما من منطوق به

1) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص 98.
2) [رسالة الغزالي إلى ملك شاه في العقائد] ص 69 - طبعة القاهرة - ضمن مجموعة سنة 1907 م.
3) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص 2.
في الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، ووجد في BUFFE OULAIANمار يشهد بظاهره لذالك التأويل، أو يقارب أن يشهد.

ومبادئ الشرع لا يشتركت في وجودها، وكيفية جودها أمر يعمر معجز عن إدراك العقول الإنسانية.

والصواب: أن تعلم الفرقة من الجمهور التي ترى أن الشريعة مخالف للحكمة، أنها ليست مخالف لها، وكذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفتها لها، من الذين ينتمون للحكمة، أنها ليست مخالف لها، وذلك بأن يُعرَف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة، أعني لا على كنه هذه الشرع، ولا على كنه الحكمة، وأن الرأي في الشريعة الذي اعتقد أنه مخالف للحكمة هو رأي إما مبتدع في الشريعة لم تمسه أصلها، وإما رأي خطأ في الحكمة. أعني تأويل خطأ عليها.

إن الحكمة هي صاحبة الشرع، والأخت الرضيعة. وहما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغرزة...»(1)

* * *


وأجيب: بأن استقامة الدماغ لعلها شرط، والشيء قد يفسد لفساد محله، وقد يفسد لفساد شرط، ومع الاحتمال فلا جزم، بل النصوص واردة بأن ذلك في القلب. كقوله تعالى: "أَفَأَوْمَىٰ بِيَدِ خَلْقِيَّتِنَا فَهُمْ فَتَكُونُ لَهُمْ خَيْرًا فَغَلُبُّنَا بِهَا" [الحج: 46]; "إِنَّهُمْ لَا يُبْرِزُونَ لَهُمْ لاَقِلُبًا" [الزمر: 37]; "أَفَظُمْنَ بَيْنَ يَدَيَّ الْإِسْلَامِ" [المجادلة: 22]. ولم يذكر الدماغ قط في هذه المواضع.

فدل على أن محل العقول القلب، لا الدماغ.

وجعل الله تعالى في مجازه عادته استقامة حال الدماغ شرطا في
حصول أحوال العقل والقلب، علی وجه الاستقامة...

وإذا تقرر أن العقل في القلب، يلزم، على أصولنا، أن النفس في القلب، لأن
جميع ما ينسب إلى العقل من الفكر والعلوم، وغير ذلك، إنما هي صفات النفس،
فتكون النفس في القلب، عملاً بظواهر النصوص.

وقد قال بعض العلماء: إن النفس هي الروح وهي العقل، فتسمى نفسًا
باعتبار ميلها إلى الملذ والشهوات، وروحاً باعتبار تعلقها بالجسد تعلق التدبير
بإذن الله تعالى في غذائه، وصحته، وسقمه، ومتى فارقته ذهبت في مجارى
العادات، ومن الممكن عقلنا أن تذهب الروح من الجسد ويبقى حيًا، كما تضع المرأة
جنينها وتبقى حية على حالها كالنفس: جسم لطيف حي شفاف في جسم حي
كثيف، فممارسه كمفتارة الجنين.

وباعتبار كونها محصلة للعلوم بالفكر، تسمى: عقلاً.

فصار لها ثلاثة أسماء، باعتبار ثلاثة أنواع: العقل، والموضوع واحد، وبهذا يتجه
به أنها في القلب.

وإذا كانت النفس في القلب، كانت النية والإرادة وأنواع العلوم وجميع أحوال
النفوس في القلب.(1)

كما يقول القرافي عن علاقة العقل بالشرع:
وإن القاعدة المعلومة أن الشرع لا يبرد بخلاف العقل، بل جميع واردات الشرائع
يجب انحصرها فيما يجوز العقل، وجودًا وعدمًا، فيرد الشرع بترجيح أحد
طوفي، وجودة أو عدمه، أو يسوى بينهما، وهو الإباحة.(2)

* * *

(1) القرافي [كتاب الأمنية في إدراك النية] ص 498، 499 - وهو منشور كملحق لكتاب [القرافي وأثره في
(2) المصدر السابق. ص 523.

"إن ما يعرف بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه منقول صحيح قط. وقد تأملت ذلك في عامة ما نناقنا الناس فيه ووجدت ما خالف النصوص الصحيحة. شهادات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نفيها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات، وسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

وجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط. بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح. فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسول لا يخبرون بحالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه. بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته.

والقول كله ما كان أسئ في العقول كان أسئ في العقول. فالمجرد لا يتناقض، والرسول إنما أخبر بحق. والله فطر عبادة على معرفة الحق. والرسول بعثت بتكمل الفطرة لا بتغيير الفطرة. قال الله تعالى: "سُبْحَانَ أَنَّهُ الْحَكَمَ " [فصلت 63]. فتأخر أن سيرهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذي أخبر به عبادة حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصابد موجع الشروع المنقول والنظر المعقول. "ولقد قال الجنوبي وغيره كثير من المالفية والشافعية بتحسين العقل وتقبحه، وهو قول الكرامية والمعتزلة، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين.

(1) ابن تيمية [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ص 38 طبعة القاهرة سنة 1321 هـ.
(2) ابن تيمية [منهاج السنة النبوية] ص 82 طبعة القاهرة سنة 1321 هـ.
(3) ابن تيمية [الفتاوى] ج 8 ص 432، 438، 439 طبعة الرياض سنة 1381 هـ.
وهكذا تألقت العقلانية الإسلامية في عصر الازدهار لحضارة الإسلام.

فباستثناء هذا التيار النصوصي سادت العقلانية الإسلامية معظم تيارات الفكر في حضارة الإسلام.

٤٠

(٣) أبو حامد الغزالي [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندة] ص ١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م.
تراجع العقلانية الإسلامية

في خط سير الحضارات هناك دورات وتبادل للمواقع. بين التقدم والتخلف، بين النهوض والهبوط، "وتلك الأيام نذا ولها بين الناس" [ال عمران: 45]، "ليس بأفانتيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يفعلون سوءًا يجزيه ولا يجد له من ذون الله و بلا نصيرًا" [النساء: 123].

وفي تقرير هذه السنة الاجتماعية - سنة التداول والدورات في خط سير الأمم والحضارات - يقول رسول الله ﷺ:

"لا يلتفت الجور بعدين إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره" [رواه الإمام أحمد].

* * *

ولقد جاء حين من الدهر تراجعت فيه العقلانية الإسلامية، ضمن ظاهرة التراجع الذي أصاب الحضارة الإسلامية. فسادت الرككة لغتنا العربية. وطغت المحضرات الشكلية على شعرنا العربي. وحل الجمود والتقليد محل الاجتهاد والتجديد في مذاهب الفقه الإسلامي. وانتشرت البدع والخرافات بدلا من التصوف الحقيقي. وتراجع علم الكلام الإسلامي، وشاعت مقولته: "من منطقة فقد تزندق"... وكانت لهذا التراجع الحضاري -الذي شمل العقلانية الإسلامية- أسباب عديدة، منها الداخلية والخارجية:

- لقد تصاعد الصراع بين "الشعوبة الفارسية" وبين الطابع العربي للخلافة والحضارة. فحسب الخليفة العباسي المعتصم [179 - 227 هـ - 795 م] أن الحل هو في تكوين جيش الدولة والخلافة من المماليك الترك المجلوبين من وسط آسيا، بحسبنهم قوة محايدة بين الفرس والعرب، تكون طبيعة في بد الخلافة، لا ولاء لها نحو الفرقاء المتصارعين.
وقد اختار المعتصم مدينة «سامراء» معسكرًا لهذا الجند المماليك. لكن تضخم هذه المؤسسة العسكرية المملوكية قلب الموارنة. فبدلاً من أن تكون أداة طيعة بيد الخلافة في بغداد، غدت الخلافة «لعبة» بيد هؤلاء العسكر المماليك. بل وأصبحت «سامراء» هي العاصمة بدلاً من «بغداد».

ولقد عبر الشاعر عن هذا الانقلاب، فقال:

خليفة في قفص بين وصف وبيغاء(1).

بقول ما قالا له كما يقول البيغاء!!

وتحدث عنه السعدوي [١٩٥٦م]، فقال عن خلفاء ذلك التاريخ:

"إنهم كانوا الذين علىهم، لا أمر ينفع لهم!"(2).

ولعجمة هؤلاء العسكر المماليك، وغربتهم عن روح الحضارة الإسلامية وعقلانيتها بدأ التراجع لهذا الطابع الذي ميز هذه الحضارة. حتى كان الانقلاب الفكري الذي تم - بواسطة العسكر المماليك - في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦-٢١٧هـ = ٨٢١-٨١٠م]، والذى حلت فيه السلفية النصوصية محل العقلانية، والذي انتهى بقتل هؤلاء المماليك للمتوكل ذاته!! وتحول الخلافة إلى لعبة في يد قادة المماليك...

فلم ما جاء عبد الخليفة «القادر بالله» [٣٨١-٤٣٢هـ = ٩٩١-١٠٤١م]، الذي حرم - بمرسوم غريب عن روح الإسلام.. سمي «الاعتقاد القادرى»... حرم مقولات العقلانية الإسلامية.. وعلم الكلام.. وفكر الحضارة. كان هذا الانقلاب على العقلانية الإسلامية قد أخذ طريقه إلى ميدان الفكر في بلاد الإسلام.

ولقد وصف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبداه [١٣٦٦-١٣٧٣هـ = ١٩٤٩-١٩٥٥م] هذا «الانقلاب» على العقلانية الإسلامية وروحها العربية، وصفًا عبقوياً، أشار فيه إلى أبعادها الثقافية والحضارية، عندما قال:

«نظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام - [تسامح المساواة] - سببًا فيما صار إليه أهله!»

(1) وصف وبيغاء: من قادة العسكر المماليك بومدنا.
(2) السعدوي [الشريعة والإشراف] ص ٣٤٧-٣٤٨ - بطيئة دار النشر - بيروت.
كان الإسلام دينًا عربيًا، ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا. بعد أن كان يونانيًا. ثم أخطأ خليفة بنو عمرو بن الجموح -المعتصم العباسي- في السياسة، فاتخذ من سعة الإسلام سبيلًا ما كان يظن أن خيرًا له، فأنجز أن الجنرال العربي قد يكون عونًا لخليفة علوية: لأن العلويين كانوا ألقبو بببئ النبى، فأراد أن يتحلى بهمًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي يظن أنه يستعدها بسلطانه ويصفعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك -وفي سعة أحكام الإسلام وسهوه ما يباح له ذلك.

هناك استعمجل الإسلام وانقلب أعمجًا!

خليفة عباس بن عبد الملك أراد أن يصنع لنفسه، وبيس ما صنع بأمته ودينه، أكثر من الجند الأجنبي، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشبة أو ضاحية حتى تغلب روؤساء الجند على الخليفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضةهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي رضاه الإسلام، والقلب الذي حبه الدين.»(1)

ومقدن ذلك التاريخ -وفي بسط.. كما هو شأن التطورات الحضارية والتغيرات الفكرية- بدأ تراجع القسمة العقلانية في تاريخ الإسلام...

ثن جاءت مخاطر الحملات الصليبية، التي دامت قرنين من الزمان [489 -690 هـ-1291 1292م]. ومعها -وفي أثناءها- الحلف الذي أقامه الصليبيون مع الوثنية التترية، التي اجتاحت المشرق الإسلامي والمغرب، وأحدثت بهما من الدمار المادي والفكري ما فاق التصورات، وكذلك نزاعات الاستقلال التي انتشرت في أطراف الدولة الإسلامية. جاءت كل هذه المخاطر لتهدد وجود الدولة الإسلامية والأمة والحضارة، الأمر الذي جعل الأمة تسلم القيادة للعسكر المواليين، وتمنع الزمام -مضفرة- "للعضلات" بدلًا من "العقل والعقلانية". فطل عصر العسكر التي سادت الدولة، وانكسرت على الحياة الفكرية والعلمية والحضارية، الأمر الذي أحل الازدهار والصور الإسلامية، وأصبحت العقلانية الإسلامية بالنزيح الذي جعلها تتراءج، وتكاد أن تتواري طوال حكم العسكر المواليين، والعسكر الأتراكية العثمانية.

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبدะ 42 ص. 318، 317. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت، 1972. سنة]
ولقد ظل الحال كذلك حتى "صدمة" الاحتكاك الغربي العنيف بالشرق الإسلامي، تلك التي تمثلت في غزوة "مونتيبيرت" [1769-1821م] لمصر [1213 هـ-1798م]. الأمر الذي استنفر في الأمة عوامل المقاومة، فبدأت تحبي موارثها في العقلانية، لتجدد بها حياتها، وتقطع الطريق على التغريب والغزو الفكري والعقلانية الوضعية اللادينية التي أخذت في التسلل إلى بلادنا في ركاب الغزاة الغربيين.

وبذلك أخذت أمتنا تمسك بخيوط النهضة واليقظة والتقدم من جديد...
عقلانية الإحياء الإسلامي الحديث


«إن بلادنا لا بد أن تنغير، ويجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».


ولقد رأى الطهطاوي في باريس -بعين العالم المسلم-:

1- علومًا طبيعية، وتطبيقات لهذه العلوم الطبيعية. قد غدت "مدينة تقيم العمران المزدهر للواقع المادي في تلك البلاد. وأدرك أن هذه العلوم -التي سماها "العلوم الحكيمية. علوم التمدن المدني"- هي مشتركة إنساني عام. بل وأدرك الأصول والجذور لهذه العلوم في حضارة الإسلام وتراث المسلمين. وفسفسة وضعية. وعقلانية لا دينية، مليئة بالحشوات الضلالية، ومخالفة لكل الكتب السماوية. جعلت الفرنسيين -كما سبق وأعلن "الجبرتي"-:

«دهرية معطيل، وللمعاد والحشر منكرين، وللنبوة والرسالة جاهدين. ولقد خالفوا النصارى والمسلمين».

(1) الجبرتي [مظهر التقدم برزول دولة الفرنسيين] ص 341، تحقيق: حسن محمد جوهر، طبعة القاهرة سنة 1369هـ.
فكتب الطهطاوي داعيًا إلى أخذ العلم الطبيعي وتطبيقه عن الحضارة الغربية، وإلى رفض عقلانيتهم الوضعية اللادينية، وإحياء العقلانية الإسلامية، والمؤسسة على الشرع والعقل لتكوين البديل الإسلامي في هذا الميدان. كتب فقال:

أيوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحققكم عجب

فهذه المدينة، كما بقيت مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفوائش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيره له عليه، بل هو من الفرق المحسومة والمقبولة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: "إن كل عمل يأتي فيه العقل صواب"، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.

ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية.

إن تحسن النوايهم الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع، والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن المواقف والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها الدوالي سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسن العقل أو يqbبه إلا إذا ورد الشرع بتعتيمه أو تقيبه.

ولا عبرة بالنفس الاقتراب الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركزت إليها تحسنًا وتقصيبًا، وظننا أنهم فازوا بالقصود بتعدي الحدود، فبديع تعليم النفس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة."(1)

هكذا بدأ الدعوة إلى إحياء العقلانية الإسلامية-مؤسسة على الشرع والعقل في مقابل العقلانية الوضعية المادية الغربية، التي هي حشوات ضللية مخالفة لكل الكتب السماوية.

فعقلانيتنا الإسلامية لا تتنكر للتحسين والتقبيح بالعقل، وإنما ترجع إلى الشرع -أيضا- في هذا التحسين والتقبيح. لتكون عقلانية مؤمنة، قائمة على ساقين "العقل" و"الشرع" كما هو طابعه دائمًا وأبدًا. نعم. لقد تجلى هذا الوعي بتميز العقلانية الإسلامية في فكر الطهطاوي، الذي كان أول عين إسلامية رأت النموذج الحضاري الغربي في العصر الحديث.

* * *

[2] فإذا انتقلنا إلى رائد مدرسة الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث، تلك التي جددت وجاهدت لإخراج أمتنا من مرحلة التراجع الحضاري. ورسمت معالم المشروع الحضاري للبعث الإسلامي الحديث. جمال الدين الأفغاني [1354هـ - 1897م] فكانوا واجدون لديه صياغات متميزة ومتميزة في مقيم العقل والعقلانية الإسلامية. وفيها يقول:

"إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفردًا بين الأديان بتقريب المعتقدين بلا دليل، وتوضيح المتبعين للظنون، وتبيين الخاطفين في عشواء العمادية، والقبح في سيرتهم.

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكملا خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل. تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وإنطفاء نور البصيرة. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعرفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة.

إذاً العقل مشرق الإمام، فمن تحول عنه فقد دار الإمام.

وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأخباره، وبين ما يحكم العقل باستحالة، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقين دون سرادات عزته. أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمها؟

لقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات! لكن نقطة الافتراق كانت قوته العقلية. والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحته. والحكم، وأنتها العقل، هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع...
النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشريحة عدد الفضائل والرذائل، وبالجملة،
فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية، فهي أشرف الصناعات...
إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، وسوف يستطيع بعضه ما غمض وحفر
من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصورياته،
فيما ما كان من التصورات مستحيلة قد صار ممكنًا، وما صوره جموده بأنه
خيال قد أصبح حقيقة.
إن أول ركن بنى عليه الإسلام، صقل العقول بسائل التوحيد، وتطهيرها من
لوحة الأوهام، وسعادة الأمم لا تتلم إلا بصفاء العقول من كميات الخرافات وصدأ
الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تسكن بها العقل لقامت حاجبًا كثيرًا يحول بينه
وبين حقيقة الواقع وينمتعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافات قد تنقل بالعقل عن
الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل مثل على مثله، فسيسال عليه قبول كل
وهم، وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجد بعضه عن الكمال، ويضرب له دون
الحقائق ستائرًا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفس من الوعيدة
وقرب الدهشة والخوف مما لا يخفيف والفزع مما لا يرفع.
إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف في وجه الأنسان، وقرر المزايا على
قاعدة الكمال العقلي وال психي لا غير، فنناسي إما يتفاضلون بالعقل والفضيلة;
وعقائد الأمة، وهي أول ركن ينقص في ألوان نفوسها، يجب أن تكون مبنية على
البراهين القوية والأدلة الصحيحة، وأن تنتمي مطالعة الظنين في عقائدها،
وتنزف عن الأكاذيب بتبليغ الأباء فيها، فإن معقدًا أئذى العقيدة في محليته، بلا
دليل ولا حجة قد لا يكون موافقًا، فلا يكون موضوعًا. وأولئك المتمتعون للظن
القانوني بالتقليد تلقى لهم عقولهم عند ما تعودت إدراعًا، فلا يذهبون مذاهب
الفكر، ولا يسلكون طرق المنظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتشهم الغبائة بالقرآن،
ثم تكاثفت عليهم البلاد حتى تععل عقولهم عن آراء وظائفها العقلية بالمرة،
فبدروا العجز عن تميز الخير من الشر، وفريجيت بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت،
وبينس المال مالهم. هذا هو الإسلام..(1)

(1) الأفغاني، (الأعمال الكاملة) ص 127، 126، 125، 124، 123، 120، 119، 118، 117، 116، 111، 110، 109، 108، 107، 106، 105، 104، 103، 102، 101، 100، 99، 98، 97، 96، 95، 94، 93، 92، 91، 90، 89، 88، 87، 86، 85، 84، 83، 82، 81، 80، 79، 78، 77، 76، 75، 74، 73، 72، 71، 70، 69، 68، 67، 66، 65، 64، 63، 62، 61، 60، 59، 58، 57، 56، 55، 54، 53، 52، 51، 50، 49، 48، 47، 46، 45، 44، 43، 42، 41، 40، 39، 38، 37، 36، 35، 34، 33، 32، 31، 30، 29، 28، 27، 26، 25، 24، 23، 22، 21، 20، 19، 18، 17، 16، 15، 14، 13، 12، 11، 10، 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1.

* * *

قل، أنت sacrificing [الاسم الكاملة] ص 175، 174، 173، 172، 171، 170، 169، 168، 167، 166، 165، 164، 163، 162، 161، 160، 159، 158، 157، 156، 155، 154، 153، 152، 151، 150، 149، 148، 147، 146، 145، 144، 143، 142، 141، 140، 139، 138، 137، 136، 135، 134، 133، 132، 131، 130، 129، 128، 127، 126، 125، 124، 123، 122، 121، 120، 119، 118، 117، 116، 115، 114، 113، 112، 111، 110، 109، 108، 107، 106، 105، 104، 103، 102، 101، 100، 99، 98، 97، 96، 95، 94، 93، 92، 91، 90، 89، 88، 87، 86، 85، 84، 83، 82، 81، 80، 79، 78، 77، 76، 75، 74، 73، 72، 71، 70، 69، 68، 67، 66، 65، 64، 63، 62، 61، 60، 59، 58، 57، 56، 55، 54، 53، 52، 51، 50، 49، 48، 47، 46، 45، 44، 43، 42، 41، 40، 39، 38، 37، 36، 35، 34، 33، 32، 31، 30، 29، 28، 27، 26، 25، 24، 23، 22، 21، 20، 19، 18، 17، 16، 15، 14، 13، 12، 11، 10، 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1.

49
أما المهندس الأكبر لفكر البوذية الإسلامية الحديثة، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد الله [1266/1849-1323/1905] فقد كونت نصوصه في العقلانية الإسلامية عملاً نافعاً، مثلً -بعد أن جمعناه ونشرناه في كتابنا [الإصلاح بالإسلام]- ديوانًا لهذه العقلانية الإسلامية المؤمنة.

ولقد قال فيه ضمن ما قال:

"إن الإنسان كون عقل، سلطان وجوده العقل. والعقل هو الفرقة الذي يفرق بين الحق والباطل. وهو جوهر إنسانية الإنسان، وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها. والكون جميعه صحيخته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتبوع، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل الوصول إليه."

ولقد تأخر العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان النبي مرس، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة إلا من لا ثقة له بعقله ولا بينه:

أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالمعلم بوجود الله، ويقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوجى إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة كالتثديق بالرسالة نفسها.

كما أجمعنا على أن الدين إذ جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي، والنظر عنه هو سبالة الإمام الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذن إلى سلطته، فكيف يمكنك بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟ بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومازالت طالبًا غير واقف عند الظن فهو ناج، فأي سعة لا ينظر إليها الحجر أكل من هذه السعة؟

إتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقى في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتغويض الأمر إلى الله في علمه.
والطرق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

ولا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون البقين بإطلاق النظر في الأكوام طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.

فلا يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد، والقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم... فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها. وأطلقت له حق النظر في أنحائها، وبشر ما انطوى في أثنائها. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يذهبك بخارق للعادة، ولا يغشي بصريا بأطوار غير معطدة، ولا يخرس لسانك بقارة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية. والمرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اعتناع به. فمن رعى على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحا، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن ينزل الإنسان للخير كما ينزل الحوار، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتنزكي نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفهم أنه الخير النافع للرحمن لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة ضرره في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصري عقل في اعتقاده... فالعاقل لا يقبل عاقلاً مثله، فأخذره بالآلا يقبل جاهلًا دونه...

و بهذا الأصل، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ: مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزرعت من سبيله جميع العقبات، وأتسع لله المجال إلى غير حدود...

لكن العقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه مافيه سعادته في هذه الحياة. وقد يكون من الأعمال مالا يمكن درك حسن، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه. وهذا النجوم لا حسن له إلا الأمر ولا قبح له إلا النهي. إن مجرد البيان العقل لا يدفع نزاعًا، ولا يرد طمأنينة. وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني. أما الوصول إلى كنه حققه فمما لا يبلغه قوته...
ومن أحوال الحياة الأخرى مالا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده. لهذا كان العقل محتاجًا إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة...
فالعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة. أما النقل، فهو ينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعيادات...
والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريع في القواعد. والعقل من أشد أوعاه، والنقل من أقوى أركانه.
لقد منح الله الإنسان أربع هدابات يتولص بها إلى سعادته:

1- هدابة الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري.
2- وهدابة الحواس والمشاعر.
3- وهدابة العقل، التي هي أعلى من هدابة الحس والإلهام.
4- وهدابة الدين، التي تضبط وتصحح وتكمل أخطاء ونواقص غيرها من الهدابات.

وبهذا تتكامل - في المعرفة الإسلامية - هدابات العقل: النقل، والتجربة، والوجدان.

* * *

تلك لمحات - مجرد لمحات - وإشارات - مجرد إشارات - على امتياز الإسلام بالعقل والعقلانية التي مثلت مع الوحي الإلهي، الرسل اللذين تجسد فيها «اللطف الإلهي» بالإنسان، الذي خلقه الله فسواه، ونفع فيه من روحه وفضلله لذلك - حتى على الملائكة المقربين. والذين حمل أمانة الاختيار والمسئولية في عمران هذا العالم وفق «الكتاب» و«الحكمة». أي نور الشرع ونور العقل، لتكون حياة الإنسان نورا على نور.

(1) محمد عبد [الأعمال الكاملة] ج5 ص.288،286،284،282،281،279،277،275،274،272،269،266،264،262،260،257،256،254،252،250،248،246،244،242،240،238،236،234،232،230،228،226،224،222،220،218،216،214،212،210،208،206،204،202،200،198،196،194،192،190،188،186،184،182،180،178،176،174،172،170،168،166،164،162،160،158،156،154،152،150،148،146،144،142،140،138،136،134،132،130،128،126،124،122،120،118،116،114،112،110،108،106،104،102،100،98،96،94،92،90،88،86،84،82،80،78،76،74،72،70،68،66،64،62،60،58،56،54،52،50،48،46،44،42،40،38،36،34،32،30،28،26،24،22،20،18،16،14،12،10،8،6،4،2،0.

د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة 1972 م، وطبعة القاهرة سنة 1993 م.
القسم الثاني
نصوص تراثية في العقلانية الإسلامية

تمهيد:

1- الحارث بن أسد المحاسبي.
2- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.
3- أبو الوليد ابن رشد.
4- شيخ الإسلام ابن تيمية.
5- الإمام الشافعي.
6- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وأخيراً وشهد شاهد من أهله.
تفهيد

في هذه "النصوص التراثية" التي تمثل صورة لـ "ديوان العقلانية الإسلامية"، حرصنا على أن تكون مجددة لمكانة العقل في أغلب مذاهب الإسلام. وعبر التاريخ الإسلامي، تتكون شاهد صدق على المقام العالي والمتميز للعقل والعقلانية لدى جمهور علماء المسلمين. ولذلك، تم الاختيار لنصوص ستة من أئمة العلم الإسلامي، يمثلون ألوان الطيف للمذاهب الإسلامية المعتبرة في الفكر الإسلامي - منذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن الرابع عشر الهجري - كما يمثلون المناهج الفاعلة في الحياة الفكرية حتى هذه اللحظات.

ولقد أثرنا ألا نفّذ في هذه النصوص مساحة لعلماء المعتزلة، لأن انتصارهم للعقل والعقلانية، وفروستهم في هذا الميدان ليست موضع جدل ولا إشكال، ولا إرادة ولا حاجة إلى مزيد حديث.

وأيضًا لتنوير هذه النصوص التي اخترناها - وهي لعلماء من غير المعتزلة، بل وناقدين لكثير من مقالات المعتزلة- شاهدًا، برد على الخطأ الشائع عند بعض الدراسين، الذين يحسبون أن إعلاء مقام العقل في التراث الإسلامي قد كان وقعاً على علماء الاعتزاز.

* * *

أما هؤلاء العلماء الأعلام الذين اخترناهم لتقدم صفحات من فكرهم في العقل والعقلانية الإسلامية، فهم:
الحارث بن أسد المحاسبي (١٢٥- ٢٤٥ هـ = ٧٨١- ٨٧٨ م)

الذي تميزت مسيرته الفكرية والروحية عندما جمعت بين علم الأصول والنزعة السلفية والكلام والتفلسف والفقه والتصوف. فجعلت كلمته عن العقل والعقلانية شمولًا ومنافًا خاصًا.

لقد ولد الحارث بالبصرة. ومات ببغداد. وكان واحدًا من كبار الزهاد والمتصوفة في عصره. كما كان واعظًا مبكيًا لسامعيه.

ومع انتصاره للعقل والعقلانية -إلى لهد خص العقل بالتأليف فيه- فلقد كان نافذًا للمعنى -في عصر علا فيه شأن المعتزلة وسلطانهم- كما خالف الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤- ٢٤٥ هـ = ٧٨٠- ٨٥٥ م] الذي كان زعيم السلفية وأكبر خصوم الاعتزاز.

ولقد كان الحارث -مع كل هذا- أستاذًا لجمهور العلماء ببغداد في ذلك العصر الذي كانت فيه بغداد حاضرة العلم والعلماء في الدنيا كله، بتعتيم وإطلاق.

ومن الآثار الفكرية التي بقيت لنا من إبداعات الحارث المحاسبي -غير كتابه عن مانوي العقل ومعناه واختلاف الناس فيه- كتب ورسائل:

١- [أدب النفس]
٢- [شرح المعرفة]
٣- [المستقبل في أعمال القلوب والجمال]  
٤- [المستقبل في الزهاد وغيره]
٥- [البعث والنشور]
٦- [الرعاية لحقوق الله عز وجل]

* * *
هو أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزالي. فقيه شافعي ومتكلم أشعر. وأحد الذين طوروا الأشعرية، التي غدت المذهب الكلاسيكي لجمهور الأمة الإسلامية. وهو أيضاً أصولياً وفلاسوف. وصاحب تجربة صوفية شديدة الغنى وبالغة الثراء. أثرت إبداعاً مثيراً في عالم الفلسفة والعلوم.

ولد الغزالي في "الطارابان" - من أعمال "طوس" - في شرق العالم الإسلامي. ورحل طالبًا للعلم ومعلماً إلى كثير من الحواضر والأقاليم في عالم الإسلام - مثل نيسابور، بغداد، الحجاز، الشام، مصر، وغيرها. ثم كانت وفاته بخراسان.

ولقد تميز الغزالي في تاريخ الفكر الإسلامي - عندما جمع بين الاجتهاد وبين التجديد والإحياء لحياة الأمة وعلوم الإسلام. كما كان نموذجاً لمنهج الوسطية الإسلامية التي جمعت بين العقل والنقل والوجدان.

كما تميز عندما أصبح "ظاهرة فكرية" تطبع قطاعات واسعة من مبادئ الفكر الإسلامي، وتجذب المهجرين، منذ عصره وحتى هذا العصر الذي نعيش فيه.

ولقد بلغت مؤلفات الغزالي نحوا من مائتي كتاب ورسالة - كتب أغلبها بالعربية. وبعضها بالفارسية - ثم ترجمت إلى العربية. كما ترجمت العديد من آثاره الفكرية إلى العديد من اللغات الأوروبية. وكان واحداً من الذين أثروا تأثيرًا كبيرًا في الفكر الغربي، وفي النهضة الأوروبية الحديثة.

ومن أهم آثاره الفكرية:

1- [إحياء علوم الدين]
2- [تقاليد الفلسفة]
3- [مقاصد الفلسفة]
4- [المستكشف من الأصول]
5- [الاقتصاد في الاعتقاد]
6- [معيار العلم]
7- [العقل المستقيم]
9- [ميزان العمل]

9- [فقيه التفرقة بين الإسلام والزنقة]

10- [مشكاة الأنوار]

11- [معارج القدس]

12- [المنطق من الضلال]

13- [فضائل الباطنية]

14- [المعارف العقلية]

15- [المضنون به على غير أهل]

16- [العشير العواء عن علم الكلام]

17- [جواهر القرآن]

18- [ياقوت التأويل في تفسير التنزيل]

19- [الثبيب المسبوق في نصيحة الملوك]

20- [منهاج العبادين]

21- [عقيدة أهل السنة]

22- [المقصد الأنسن في شرح أسماء الله الحسنى]

وغيرها من الكتب والرسائل...

(2) أبو الواليد ابن رشيد (395 – 1132هـ = 326 – 1198م)

هو أبو الواليد محمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن رشيد. من أشهر فلاسفة الإسلام، وفي مقدمة من شرحوا أعمال حكيم اليونان أرسطو. ومن أبرز الفلاسفة والمتكالمين المسلمين الذين حاولوا التوافق بين الحكمة والشرعية. كما كان فقيهًا من أعلام فقهاء المالكيه. وواعدًا من كبار القضاة. وعلمًا من أعلام العلوم الطبية في عصره. ولد بقرطبة في أسرة ذات نفوذ علمي كبير، وسلطان قضايا ملحوظ، فقد كان جده لأبيه قاضيًا بقرطبة.

ومع كبار فقهاء المذهب المالكي. ومشتغلًا بالسياسة والشؤون العامة.
ولقد تلتزم ابن رشد -الخفيف- في الطب لأبي جعفر بن هارون وأبي مروان بن جربول البليansi، وتلتزم في الفلسفة لأبي طفيل. كما برغ في علم الكلام والفقه واللغة، ولا يمكن له في معظمها من معاصرته نظير ولا قرين.

تولى منصب القضاء في أشبيلية- أولا- سنة 564 هـ = 1169 م. ثم أصبح قاضي القضاة بقرطبة سنة 566 هـ = 1171 م.

وفي سنة 564 هـ = 1169 م. قدّم ابن طفيل إلى السultan "أبو يعقوب يوسف" [580-441] الذي كلفه بوضع الشرح والتفسير على مؤلفات أرسطو، حتى تستقيهم عبارتها وتقرأ مما لحقها من عروض الترجمة وأخطاء الشراح والمسرين. فنشر ابن رشد في إنجاز هذا العمل الكبير الذي جعله -على النطاق العالمي- الشارح الأكبر لأعمال حكيم اليونان.

وعندما تقدمت السن، بابن طفيل تولى ابن رشد منصبه كطبيب خاص للسلطان في بلاط مراكش سنة 578 هـ = 1182 م.

وعندما توافى السلطان أبو يعقوب يوسف، وخلفه السلطان المنصور أبو يوسف يعقوب [580-1184 - 1199 م] استمرت حظوة ابن رشد عنده لفترة وجيزة، أعقبتها محنته -التي امتدت في أسبابها السياسة والفكر- فنشى سنة 591 هـ = 1195 م إلى مدينة "أليساتان" على مقربة من قرطبة مع عدد من المشتغلين بالحكمة والفلسفة. ثم انقطعت سحابة هذه المحنة، فعاد ابن رشد إلى مكانه في بلاط السلطان، ومكانه في الفلسفة والطب والفقه والعلوم، حتى توفي في أول دولة السلطان الناصر -في 9 صفر سنة 595 هـ = 11 ديسمبر سنة 1198 م.

ولقد شهد ابن رشد، محمودًا على بعير، وهو في طريقه من مدينة مراكش ليدفن في بائد الأندلس، وقد وضع الجثمان في ناحية، وفي الناحية الأخرى من حمل البعير كتبه ومؤلفاته.

ويذكر ابن الأبار [595-685] إن سيرة ابن رشد أنه "كانت الدراية أغلب عليه من الرواية، درس الفقه والأصول وعلم الكلام، وغير ذلك".

59
 ولم ينشأ بالأندلس مثله كمالًا وعلمًا وفضلًا، وكان، على شرفه، أشد الناس تواضعًا وأخفضهم جناحًا.

على بالعلم من صغره إلى كبيره، حتى حكي عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عُقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة ينانه بأهله، وأنه سُود في ما صُنف وقيد والف وهذب واحتصر نحوه من عشرة آلاف ورقة.

ومال إلى علوم الأوائل فكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره، وكان يُفرز إلى فتواه في الطب كما يُفرز إلى فتواه في الفقه، مع الحظ الوافر من الإعراب والأدب، حتى حكي عنه أبو القاسم بن الطيلسان [570-642هـ] = 1179 - 1244م] أنه كان يحفظ شعري حبيب بن أوس - أبو تمام - 171م = 886 - 915م والمتنبي [3-354] والفقه 696م] ويكثير التمثيل بهما في مجلسه، ويورد ذلك أحسن إيراد...

ولقد بلغت الآثار الفكرية لابن رشد - الإبداعات والشروح على أرسطو - نحوًا من مائتين وعشرين كتابًا...

ومن أهم إبداعاته - في الفلسفة والكلام والفقه والطب - :

1. [تغافت التهافت]

2. [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال]

3. [مناهج الأدلة في عقائد الملة]

4. [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] - في الفقه

5. [كتاب الكليات] - في الطب.
هو أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم الخضر النميري، الحراني.

فليسوف السلفية وحكمهما، الذي انتقل بها من مرحلة الوقوف عند النص وحده - وأحياناً ظاهر النص - إلى مرحلة فلسفة النص وعقلته.

وهو واحد من أبرز المجددين في عصره، إذ جمع إلى الاجتهاد والجهاد ضد الغزاة - بالفكر والسيف - تقديم «مشروع فكرى» لتجديد الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية. وقد ظلت هذه هي مكانته في حركة الإصلاح الإسلامي حتى هذه اللحظات.

ولقد كان ابن تيمية إمام النقادين والناقضين للفكر اليوناني - منطقاً وفلسفة - ومن أبرز الذين اجتهدوا لإبداع البديل الإسلامي لفكر اليونان - الذي تسرب إلى كثير من مناحي الفكر الإسلامي - كما كان من أبرز النقادين للفكر الباطني والفقهي، الذي مثل - مع الفكر اليوناني - جناحي التهديد لتميز الوسطية الإسلامية.

ولد ابن تيمية بحران، ونبغ وASHBOARD بدمشق. وتجلت آيات نبوته في المناظرة والاستدلال والفسير والإفتاء والتدريس، وهو دون العشرين من عمره.

ولقد كان قلبه وسانه فرسي رهان في التعبير عن إبداعات عقله الكبير.

وكان قتاراه - التي خالف في بعضها عددًا من علماء عصره - من أسباب محنته، ومبادئ جهاده. فسجن بمصر - بالقاهرة، والإسكندرية، فلما أطلق سراحه رحل إلى دمشق سنة 712هـ. ثم أعيد اقتحامه بها سنة 720هـ. ثم أطلق سراحه. ثم أعيد اقتحامه إلى أن مات معتقلًا بقلعة دمشق.

ولقد حول سجنه من محلة لحيته الشخصية إلى نعمة لسياحاته الفكرية وإبداعاته في علوم الإسلام. وعندما مات خرجت دمشق عن بكرة أبيها في جنازته تعبيرًا عن مكانته المتميزة بين العلماء المجاهدين.

ولقد خلف ابن تيمية من الآثار الفكرية ما يزيد على أربعة آلاف كراسة، غدت مختلف ميادين العلوم - من الأصول، إلى الفقه، إلى التفسير، إلى الحديث.
السياسة الشرعية. إلى الفتاوي - التي عكست إمامته للعصر، وفقهه للواقع الذي
عاش فيه. إلى الردود على المخالفين

ومن هذه الآثار -غير الفتاوي-:
1 [الجوامع] - في السياسة الإلهية والآيات النبوية
2 [الإيمان]
3 [منهج السنة النبوية]
4 [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]
5 [الرد على المنطقين]
6 [نقض المنطق]
7 [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان]
8 [اقتصاء الصراط المستقيم مخالفًا أصحاب الجحيم]
9 [الصارم المسلم على شأم الرسول]
10 [رفع الملام عن الأئمة الأعلام]
11 [السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية]
12 [نظرية العقد]
13 [التوسط والوسيلة]

وعشرات الرسائل التي رد فيها على المخالفين...

وكمما جاهد ابن تيمية بالسيف ضد الاختراق «الصليبي-الترير» لديبار
الإسلام، كذلك كان جهاده - بالقلم واللسان - لتحصين العقل المسلم ضد
الاختراق الفكري الذي تمثل في الباطنية الغنوصية وفي العقلانية اليونانية
اللادينية.

وعلى امتداد التاريخ - منذ عصره وحتى الآن- كان ولا يزال واحدًا من أبرز
الملمفين لدعوات الإصلاح والتجديد على امتداد عالم الإسلام..
هو إبراهيم بن موسى بن محمد، الخميسي، الغزائلي.
ولد بغزنة - بالأندلس - وكان واحدًا من أئمة فقه المذهب المالكي. وأحد الحفاظ.
وكانت براءته وعبقريته التي ميزته عن علماء عصره هي إبداعاته في أصول الفقه، وفي علم المقاصرة على وجه التحديد. حتى لقد غدا إمام هذا الفن الهام من فنون العلم الإسلامي، منذ عصره وحتى الآن.
ومن آثاره الفكرية المتميزة:

1- [المواقف في أصول الفقه] - وهو كتابه العمدة.
2- [العاصم] - في أصول الفقه.
3- [المجالس] - الذي شرح فيه كتاب البیوع من صحيح البخاری.
4- [الاتفاق في علم الاشتقاق] - في النحو واللغة.
5- [أصول النحو].
6- [شرح الألفية] - ألفية ابن مالك - في النحو.
7- [الإفادات والإنشاءات] - في الأدب.

* * *
ولد بقرية "محلة نصر" - مركز "شيراميت" - محافظة "البحيرة" بدلًا من نصرالله - بمصر. وتخرج في الأزهر الشريف سنة 1394 هـ سنة 1977 م. عمل بالتدريس والتأليف والصحافة والقضاء. وكان مفتى الأمة الإسلامية على امتداد أقطار عالم الإسلام. بل ومرجع غير المسلمين في الإفتاء!

ولقد جمع في منهجه الفكرى، بين التصوف الشرعى - علم القلوب والسلوك - وبين النزعة العقلانية الفلسفية. فكان واحدًا من أعظم حكائق الإسلام في عصرنا الحديث.

ولقد كانت صحبته لجمال الدين الأفغاني [1254-1314 هـ- 1838-1897 م] سنوات إقامته بمصر. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، الباب الذي دخل منه إلى العمل العام، فحمل مسئولية القيادة لإصلاح مناهج الفكر الإسلامي، والمؤسسات التي تصنيع العقل المسلم، باعتبار ذلك سبيل الأمثلة والأفعال لتجديد حياة الأمة، وإخراجها من المصازى الحضاري الذي تردت فيه.

ولقد كان منبهه في الإصلاح متميزًا بسم الأولويات الذي يقدم "الامة" على "الدولة"، و"التربيه" على "السياسة"، و"الفكر" على "الحركة"، و"الاصول" على "الفروع"...

ولذلك كانت "السياسة" - بمعنى السلطة والحكومة والمراقبة على الأمور - والخلفاء - مرحلة عابرة في حياته. جذبه إليها الأفغاني. وتشتهر إليها الوطنية والدفاع عن الوطن. إن ثورة العراقية والمواجهة مع الغزو الإنجليزي لمصر.

أما إبداعاته الفكرية - التي جمعناها في أعمالها الكاملة والتي قاربت صفحتها أربعة آلاف صفحة - فقد تمثلت فيها معالجته في الإصلاح والتجديد. ففيها: نقد للتخلف المروع من عصور التراجع الحضاري ونقض لركام الشعود والإخراط الذي ساد في الثقافة الدينية والشيوعية. ونقد لمادة الحضارة الغربية. وإحياء للعقلانية الإسلامية المؤمنة. وتركيزة للاستقلالية الإسلامية الجامعة. ودعوة للاهتمام بعلم السن الكونية والاجتماعية. وفقه
للواقع المعيش. ومنهج عبقري في تفسير القرآن الكريم. وتنقية لعلم العقيدة الإسلامية من شغب المتكلمين القدماء. وسلفية دينية تعود - في فهم الدين - إلى المنابع الجوهرية والنقية والمعصومة. ومع استشراف للمستقبل، في فقه الواقع وعلوم التمدن المدني.

كذلك، كان محمد عبيد صانع رجال، فتكونت من حوله مدرسة فكرية ضمت كوكبة من العلماء الذين تلمذوا عليه - مباشرة - ومن الذين حملوا منهجه، فمثلوا السلسلة الذهبية التي قادت الإصلاح الديني والاجتهاد والتجديد في عصرنا الحديث وواقعنا الإسلامي المعاصر. ليس في مصر فقط، وإنما على امتداد عالم الإسلام.

* * *

هؤلاء هم أعلام العلماء الذين اخترنا تقديم «ديوان العقلانية الإسلامية» من خلال نصوصهم التراثية التي أبدعوها في هذا الميدان.

والله نسأل أن تجد هذه النصوص طريقها ومكانها في قاعات الدرس والمدارس بالجامعات الإسلامية، وحلقات العلم والعلماء. لتكون سببًا لجمع الأمة والعقل المسلم على كلمة سواء في هذا الحقل المعرفي الذي افترقت فيه السبل، وعمت فيه الحقائق على الكثيرين.

دكتور محمد عمارة
الحارث بن أسد المحاسب
(165-243هـ 781-857م)

لى الله أسماء الحسن

وفأرك اللهم

قال أبو عبدالله الحارث بن أسد بن ابي الله المحاسبى البصري

رحمة الله عليه

باب ماهية العقل وحقيقة معناه (1)

سأله عن العقل ما هو؟

وإنى أرجع إليك في اللغة، والمعقول من الكتاب والسنة، وتراجع العلماء

فيما بينهم بالتسمية، ثلاثة (معاني)

أحدها: هو معناه، لا معنى له غيره في الحقيقة.

والغيرون اسماء جوزتهها العرب إذ كانا عنه فعلاً، لا يكونان إلا به ومنه.

وقد سمى الله تعالى في كتابه وسمت الناس العلماء عفلاً.

فأعمال ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره. فهو غريب وضعها الله سبحانه.

في أكثر حالد: لم يعلم عليها العباد بعضهم من بعض، ولا أطلقوا عليها من

أنفسهم بروية، ولا بحس. ولا ذوق، ولا طعم. وإنما عرفهم الله (إياها) بالعقل منه.

فهذا العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة

ما ينفعهم وفعلها ما يضر بهم.

(1) لقد اعتمدوا النص كما حققه الأستاذ حسن القوتلي - انظر كتابه (العقل وفهم القرآن) ص ٢٣٨-٢٣٠.

طبعه بيروت - دار القدر، ودار الفكر، الطبعة الثانية - سنة ١٣٨٢هـ، سنة ١٩٦٣م. وقد تناوينا من

الوسائل التي لا ضرورة لها.
قصّ رفع ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه، عرف أن الله تعالى قد منَّ عليه بالعقل الذي سلب أهل الجنون وأهل التيه، وسلب أكثرهم الحمقى، الذين قلَّت عقولهم.

وذلك معروفة بعضهم من بعض بظاهر فعل الجوارح.

فَيُمْسَدُّ أنه عاقل له عقل فإذا رأوا من أفعاله ما يدلُّهم أن أنه قد عرف ما ينفعه من دنياه وما يضره؛ إذا رأوَهَ طالبًا عانًا ما ينفعه من دنياه مجانًا لما يضره من دنياه. فسموا من كان كذلك عاقلاً وشهدوا أن له عقلًا وأنه لا مجنون، ولا تابع ولا أبيض.

فإن رأوه يخالف ذلك شهدوا أنه مجنون قد (تغشى) عقله من الأفقي ما أدهله، وأزال معرفته بالمناعفة ومضارته.

فإن رأوه يتبع مناعفةً، ويجبب مضارةً، وفي كثير من أفعاله يعمل بخلاف ذلك سموه على قدر الكثرة بخلاف ما يفعل العاقلون أو لقلته أحمق أو ماتملاً.

فإن كان له وقت نزول أفعال العقل عنه يصبغ، أو تقليب للأمور في القول والفعل سموه مجنونًا في ذلك الوقت، عاقلاً إذا أفاق، وتجلى ذلك عنه، وعاد لهينته الأولى، من أن تظهر منه أفعال العقل واللب بأسباب ذلك.

إذا سئل أجاب بما يعقل. ويطلب مناعفةً ويجبب مضارته. وربما تعرض لما يضره في العواقب، وذلك نافع له في العاقبة، ضار له في الآخرة، فينسي عاقلاً.

يعنيون أن للغريزة التي هي ضد الحمق والجنون، وأنه قد نقص عقله للعاقبة بقدر ما تعرض لما ينفعه في العاقل بما يضره في العاقبة.

فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتليئين من عباده، أقام به على البالغين للحلم الحجة، وإياهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد ووعود، وأمر ونهى، وحص وندب. فهو غريزة لا يعرف إلا يعمال في القلب والجوارح. لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله.

لا يقدر أن يصفه بجسمية، ولا يطول، ولا يعرض، ولا طعم، ولا شم، ولا مجسه، ولا لون، ولا يعرف إلا بفعله. وقال قوم من المتكلمين: هو صفوة الروح، أو خالص الروح.

(1) المحقق: الهالك حمدًا و غيابًا.
وافقوا باللغة فقالوا: لَبِّ كل شئ خالصة. فمن أجل ذلك سمى العقل ليتٌ.

وقال الله عز وجل 

أَنَّمَيْنِذَكُكُمُ اللَّهُ بِإِجْرَامَكُمْ (الرعد: 9) يعني أولى العقول.

ولا نقول ذلك إذا لم نجد فيه كتابًا مخاطرًا، ولا حديثًا متأثرًا.

وقال قوم: هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة، يبصّر به، ويُبَيِّن به.

نور في القلب كالثور في العين، وهو البصر.

فالعقل نور في القلب، والبصر نور في العين.

فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على العقول.

وقد زعم قوم أن العقل معرفة نظمها الله ووضعها في عباده يزيد ويُبَيِّن بالعلم المكتسب الدلال على المنافع والمضار.

والذي هو عندما أنه غريزة، والمعرفة عنه تكون.

وكذلك الجنون والحمق لا يسمى نكرة لأنه لو كان المعرفة هو العقل، سمى الجنون نكرة، والحمق نكرة، لأن النكرة ضد المعرفة، والجهل ضد العلم.

فلمما امتنع أهل العلم أن يسموا المجون منكرًا جاهلاً، ولا يسمون المنكر مجنونًا، والجاهل مجنونًا، وقالوا بأنه مجنون، صَحَّ ما قَلَنَاهُ.

ومما يدل على أن العقل هو الغريزة التي (بها) عُرِفَ فأقر، وعَرَف فأتكر، أو ظَنَّ فأدرك، لأن الإرث فعل، فكذاك ضد المعرفة فعل.

فمنه فعل عن طبع يوجبه الطبع (قال الضرة): كمعرفة الرجل نفسه، وأمهم، والسماء، والأرض، وجميع الأشياء التي تشاهد.

ولولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من أسماء الأشياء ثم رأى الأشياء، لعرفها بروئي ولم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها.

(1) يقصد الضرورة. يعني أن هذه المعرفة تأتي نتيجة ضرورية لكون العقل غريزة.
أو لم تسمعُ إلى ما وصف الله تعالى ملائكته: إذ سألُهم أن يُخبروه بأسماء الأشياء فقالوا: لا علم لنا. فأمرَ≥(1) فأمرَ≥(2) به لابن عَلَّمه الأشياء؟

قلمن يعرف عاقل أسماء الأشياء إلا بالتعليم منذ هو طفل لم يسمع ويرى.

عرف بعضه الأشياء، وفصل بين معانيها.

فكل بالله من الجن والإنس من الذكور والإنسان ممن أمره الله تعالى ونهبوا ووعده وتوعده برسالة النذر، وإنزال الكتب، وآثار آيات التدبير، فحجت العقل لأزمة له، إذ أنعم الله سبحانه بالعقل عليه، ومعرفة البيان لليهلك من ذلك عن يمين ويسبى عن بيته وثنى عن بيته وإن الله نسيم غليمه [الأنغام: 4]، وما كان الله يُفصلقوم بالمقدمة.

هذاهم حِيَيبين لهم ما ينفعون [التوبة: 115].

أو لا تراه يقول عَلَى وَجَلَّ. وأما نَفْرَة فِهيِنَا هم يدعون بينا لهم ما يعقلون [بسطحاء: 17].

باستغفر الله لعِينَي عَلَى الْهَيْدِ. فأستغفر الله على الهديد [قصة: 17].

فإنما خاطب الله العباد من قبل أهل البيت، واحتج عليهم بما ركبه فيهم من عقولهم: وما الله يظلم للعبيد.

ومع هذا فإنه قد يخص بالنبيه والتوقيع من يشاء من عباده، ويختص بجواره من أحب من خلقه.

لا لأن أَبيَّن الأشياء هذه قبل الجهر باللسان، فإنه قال عَلَى وَجَلَل: ومن الناس من يعجِب بكُلِه في الحياة الدنيا، [التكوير: 404]. وهذا قبل أن يخربه.

وقال خالد بن صفوان: لولا التبيان لكان المرء بهيئة مهما أو صورة ممثلة.

وقال الشاعر:

وفي الصمت ستغنى يومًا وإنما

صحيفة لَّـبِ المعرق أن يتكلما

(1) يزيد الإشارة إلى الآية 42 من سورة البقرة.
(2) أحد خطباء العرب وبلغهم المعروفين. له أخبار عن هشام بن عبد الملك وأبي العباس السفاح.
وأما الانتقان اللتان جُوزتُهما اللهُ في الكتاب والسنة، وتراجع أهل المعرفة فيما بينهم بال urlStringة فجزأوْتُهما اللهُ على حقيقة المعنى بأن سُمِّتهما عقلاً، إذ كانا عن العقل لا عن غيره.

فإحداهما: الفهم لإصابة المعنى: وهو البيان لكل ماسمع من الدنيا والدين أو مس أو ذاق أو شم، فسمى الخلق عقلًا، وسموا فاعله عاقلًا.


وهذه خصلة بيشترك فيها أهل غزيرة العقل التي خلقها الله فيها من أهل الهدى وأهل الضلال، من بعض أهل الكتاب لما تقدم عندهم من أهل الدين.

ويجتمع عليها أهل كل إيمان وضلال في أمور الدنيا خاصة والمطعو والعاصي، وهو فهم البيان.

وقال الله عز وجل في ما يعبِّبه أهل الكتاب، فقال: "يُسمَّونْ كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون" [البقرة: 75].

وقال عز وجل: "يُعرفونه كما يعرفون آبائهم" [البقرة: 146].

وقال: "يعلمون أنَّهُ الحق من زعمهم" [البقرة: 44].

وقال: "يعلمون أنَّهُ شرَّ من ربك بالحق" [الأعماق: 114].

فالفهم والبيان يسمى عقلاً لأنه عن العقل كان.

فيقول الرجل للرجل:

"أعقلت ما رأيت أو سمعت؟"

فيقول نعم، بعض أني قد فهمت وتبعيت.

والعرب إنما سمِّى الفهم عقلاً لأن ما فهمته فقد قيدته بالمفاهيم فعشق في وضتيته كما البعير قد عقَّ. (أي) أنك قد قيدت ساقه إلى فخذيه.
ومن ذُلِّل على ذلك وعَمِل غَيْر عِلْمَةً العِقلَةُ الاتِّباعَةَ الَّتِي فَرَقَ الَّذِينَ يعَلَّمُونَ بَيْنَ الْعِقَالَا وَالْمُجَالِمِينَ
فَهُوَ غَيْر عَقَلِيّ عَنَّ الَّذِينَ يعَلَّمُونَ بَيْنَ الْعِقَالَا. وَهُوَ عَقَلٌ لِلْعِلْمِ الَّذِي لُزِمَهُ مِن نَفْعَ الْحَجَةِ.
وَقَد وَقَدَّ الأَلَهِ يَعَلَّمَهُ الَّذِينَ لَا يَعَلَّمُونَ بَيْنَ الْعِقَالَا. لَهُم عَقَلًا. فَقَالَ
تَعَلَّمَ: "لَهُمْ قُلُوبٌ يَعَلُّونٌ بِهَا" [الحَجْ: ٤٦] يَعِينُ عَنْهُ.

فأخبر أنهم لا يعقلون، يعني عنه (ومن) ما قال من عظيم قدره المهني عنه.

ثم قال: «يعقولون من بعد ما غفلوا» يعني عقل البيان.

وأخرج لهم عقول الغرابي لا يعقلون البيان ولا المهني عنهم بالفهم له إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاماً لا يعقلون معانيه بالفهم له كمشركى العرب فقال:

إن هم إلا كالأفاعيل بل هم أضل سلما [الفرقان: 44].

لم يعقلوا ما قال عزر وجل لإجاحهم برأيهم، ولتقليدهم أبآهم، وكبارهم.

وقد كانت لهم عقول غرائى، يعقلون بها أمر دنياهم.

ولو تركوا الإجاح بالرأى، ولتقليد الكبار ثم تدبروا لعقلوا ما قال الله، ولكن أجحبوا بآرائهم، وقيدوا كبارهم، فقال عزر وجل: «وهم يحسون أنهم يحسون صنعًا [الكهف: 140].

وقال جل ثناؤه: «أقسم زين له سواء عمله قرآة حسنًا» [فاطر: 8].

وقال: «ويحسون أنهم على شيء، إلا أنهم هم الكاذبون» [المجادلة: 18].

لم يعقلوا ما قال لهم كما عقوله المحرمون للسان بعدما عقلوه فهم يعلمون أمر دنياهم.

ووقال تعالى: أن تعويشهم مرتق في الغموض من أعلام الدين. فقال الله جل وعز: 

يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون [الروم: 7].


(1) عفان بن مسلم الصفار (120-320هـ) من شيوخ المحسنين.
(2) أبو نافع صخر بن جوهرة، مولى بنى تميم.
(3) هو الحسن البصري (211-310هـ).
قال: حدثني عفان قال: حدثنا سعيد بن أبي وقاص عن شرقي(1) في قوله: (يعلمون ظاهراً من الحِبَّةِ الدنيا) فذكر الخياطة والحباطون ونحن مهما. فأخبر الله تعالى أنهم يعلمون أمر الدنياهم. ولو تدبروا وتركوا التقليد والإجابة بالآراء لعقلوا أمر آخرهم كما عقلوا أمر الدنياهم، حين كفوا بطلب متناجعها في العواقب ودفع مضارها في العواقب.

فهذه أربع فرق:

فرقته عقلت عن الله تعالى عظام قدره وقدرته وما يعد وتوعد، فأطاعت، وخشعت.

وزعمت عقلاً漳州 البينان ثم جددت كبيراً وعندًا لطلب الدنيا كما وصف عن إبليس أنه تكرّر وعادت كبيراً، وهو مع ذلك يقول (ففرّبت لأعوينهم أجمعين) [ص: 82].

ووصف اليهود فقال: (لكلمهم الحق وهم يعلمنون) [البركة: 148]

وقال: (وجدها فيها واستنفته أنها نفوسهم طلبهما وغلوا) [النمل: 14]

 وقال: (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) [الأنعام: 114]

 وقال: (اشترى بهما قليلاً ففسن ما يشتربون) [آل عمران: 187]

وقال: (طقفت، وأعجبت، وقلت، فعممت عن الحق أن تبكيته ثم تقر به، ثم تجدها كبيرًا وطلبهما بعد عقلها للبيان فظن أنها على حق ودين) وهي على باطل وشر وضلال.

وفكرته رابعة عقلت قدر الله عز وجل في تدبيره وتعزده بالصنع، وعرفت قادر الإيمان في النجاة بالتمسك به، وقارع العقبة في ضرره في مجانبة الإيمان، فلم يجدوا كبيرًا ولا أنفًا ولا طلب الدنيا لعقلها أن عاجل الدنيا ينفيه، ومجرد الآخرة لا يفني. فأقررت وأمنت، ولم تعقل عظم قدر الله في هبه وجلاله، وعزم قدر ثوابه وعقابه في إبطال مقصده والقيام بفراشة، فعضت، وضعت، وغلقت، ونسبت إلا أنها علمت عظم قدر الإيمان في النجاة، وعظم ضرر الكفر، قد عقلته عن الله تعالى فهي قائمة به، دائمًا عليه.

_____________________

(1) شعبة بن الحجاج (62-160هـ) الأزدي البصري
(2) شرقي بن قطامي، أخبرني.
ثم بعد عقله قدر الإيمان يردد معرفة بقدّر الغضب والوعيد والوعد.
فإن ارتداد طائفة قام بطائفة من الفروض، وترك بعض المعاصي، ووافق بعض الفروض، وركب بعض المعاصي من أجل الهوى، ومعه عقل البيان والإقرار، فعقل أنه مسيء، ولم يرجع عن إساءته لغلبة الهوى.
ولو ارتداد عقلاً يعتمد قدر الغضب، والرضي، والنواب والعقاب، لاستعمل ما عقل من البيان، وأقر به بأنه حقًّا فتاب وأناب.
وجميع المتمتنين المؤمورين من العقلاة البالغين كلهم لهم عقول يميزون بها أمور الدنيا كلها، الجليل، الدقيق، وأكثرهم للاخرة لا يعقلون.
إنهم تسععون ورجل يقول: "وأراكهم ينظرون إلينا وهم لا ينصرون" [الأعراف: 198].
وقال جلّ هذا: "إنهم قلوب لا يفكرون بها ولهم أعين لم ينصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها" [الأعراف: 179].
وهم بالدنيا أهلّ بصر وسمع وعقل، ولم يتعقل أنهم صمّ خمس، مجانين، وإنما عذبهم لأنهم يعقلون لو تدبروا ما يرون ويسعون من الدلائل عليه من آيات الكتّاب، وأثاث الصناعة، واتصال التدبير، الذي يدل عليه أنهُ واحد لا شريك له.
وحكى تعالى قول أهل النار فقال: "وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السمع" [الملك: 101].
وقد كانت لهم عقول وأسماع لزمتهم بها الحجّة الله عز وجل.
وإنما عني عون وجّل أنّها لم تعقلُ عن الله فهماً لما قال من عظيم قدّر عذابه، فندمت، ونادت بالويل والندم لا أنّها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا بمجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه ووعد وتوعد.
قلت(1): فمتى يسمى الرجل عاقلاً عن الله تعالى؟
قال: إذا كان مؤمنًا خاتمًا من الله عز وجل.
(1) يرجح المحقق أن السائل هو الجنيد.
والدليل على ذلك أن يكون قائمًا بآمر الله الذي أوجب عليه القيام به، مجانًا لما كرمه ونهده عننه. فإذا كان كذلك استحقاق أن يسمى عقلاً عن الله.
بل لأنه لا يسمى عقلاً عن الله من يعزم على القيام بسخطه فأقام على ذلك مصيرًا غير تأيب.

قلت: فمتى يسمى العاقل عن الله كامل العقل عن الله تعالى؟
قال: إن العقل عن الله تعالى لا غاية له؛ لأنه لا غاية له عز وجل عند العاقل بالتحديد، بالإحاطة بالعلم بحقائق صفاته، ولا يعطيه قدر ثوابه ولا عقابه إذ لم يعاينه.

ولو عاين الله عز وجل شناوته وتقدست أسماوه صفاته لما أحاط به علمًا.
ولكن، وقد يقع اسم الكمال على الأغلب في الأسماء في العقل عن الله تعالى لا العقل بالكامل الذي لا يحتمل الزيادة.

١١٠. وقُلْ: (وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انتظروا غضب رزقكم). 
١١٠. وقال: (وَلاَ يُبِطِنُونَ عَلَيْهِمَا وَلَوْ كَانُوا عَالِمِينَ).

وروى عن الملائكة أنها تقول يوم القيامة: «رب ما عذناك حق عبادتك».
فلا أحد يساو الله عز وجل في العلم بنفسه فيعرف عن عظمته تعالى كمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه.
 فأعظم العاقلين عنده العارفين عقلاً عنه ومعرفة به الذي أقرموا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته.

ولكن قد يسمى كاملاً في العقل عن الله في ما غلبه عليه من الأفعال التي كانت عن العاقل كاملاً. من كانت فيه ثلاث خلاص:

الخوف منه، والقيام بأمره، وقوته اليقين به، وأما قال ووعد وتوعد.
وحسن البصر بدينه بالفقه عنه فيما أحب وكراه من علم ما أمر به ونهب إليه، والوقوف عند السبحيات التي سمى الله الذي وقف بها رسوخًا في العلم به.
فأذا اجتمع الخوف منه، وقوة اليقين به، وأما أن قال ووعد وتوعَّد، وحسن البصر بدين الله، والفقه في الدين، فقد كمل قوة عقله.

وإن كان الخوف من الله هو من قوة اليقين بالوعيد، فإنَّه قد يكون خائفاً، ولا يكون معه اليقين القوي الذي يتالِه الرضي والتوكل والمحبة والزهد. فمن ثم قلنا: الخوف من الله وقوة اليقين والبصر بالدين، لأنَّه قد يكون قوي اليقين وليس يحسن البصر بالدين. ويجوز أن تصرُّب بالدين لا خائفاً ولا قوي اليقين.

وجماع هذه الثلاث الخصال قوة اليقين، وحسن البصر بالدين، وإنما زدنا ذكر الخوف، وإن كان من اليقين لأنه قد يكون خائفاً، وليس بالقوى اليقين في كمال مما قال الله عز وجل مما وصف به نفسه من قدرته وجلاله وعظمته، وما وعد وثورَّد، وحذر، ورحمة، وأنعم، وأبلى به.

ثم هذه الثلاث الخصال حقائق من الفعل بالقلب والجوارح، لأنه إذا تم عقل المؤمن عن ربه أفردَه عر وجل بالتوحيد له في كل المعاني: فعل أنه ما يكون له لا غيره وأنه عثق من سواء: فتوأى عظمته واستعفَد، وخضع لجلاله، ولم يذل لمن سواء: وعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات المتنزه من كل الأفات، المنعم بكل الأبدادي والإحسان. فاستقل حبته له، لما يسأله لعظيم قدره، وكرم فعاله، وحسن أباديه.

وعقل عنه أنه لا يملك نفعة وضرة في دنياه وأخرِته إلا هو. فأفردَه بالخوف والرجاء وحدة وأمن به، وأيس من جميع حليقه. فهو الموحد له إذا عقل وحدانيته وتفرده بكل معنى كريم، ووصف جميل، وجلال عظمته، ونفاذ قدرته ومضى إرادته، وحاطة علمه، وقدم أزليته.

فأذا كان كذلك زائف الكبير على العبادة لخصوَّه لجلال الله مولاًه فتواعَد للحق، ولم يحترس مسلمًا لشهد معرفته بيصير قد تُد نفسي وليمي من الذنب لا ينفسي وعلمي بأن خواتَم الأجل بسوء العواقب، وحسن الخاتمة من الشقاء والسعادة قد سبق بهما العلم ومنفدت فيها المشيئة.

فقد أمن من عرفه كبير وجمي، وقد عقل عن الله جل وعز حكمة من خلقه واعتداره إلى خلقه لأنه ليس لهم نظام، وأبه قد بدأهم بالرحمة قبل العقوبة وقد
سبقت منه الأماباد قبل الفكر، طويل الحلم، دائم التأني، جميل الستر، مقيل العثرات، محسن إلى من تبغض إليه، متقرب إلى من تباعد منه، وعقل عنه أمره وآدابه وأحكامه وعقل داء النفس ودوانها.

فمن عرفه أمل الرشد منه، وأن يحيا بمنطقه، ويعقل عن الله جل ذكره يتأديبه له.

وعقل عن الله عز وجل ما عظم من قدَر ثوابه في جنَّته بدوامه، وطيب العيش فيه، وزوال الأفاطر، والتكدير، والتنصيص عنه، وأنه فوق ما نُحب النفس، لا يحسن أحد أن يخطر بالله ذكر كثير مما أعد فيها.

وقال الرسول ﷺ: "أُعَدَ الله عز وجل في جنَّته ما لا عين رآه، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وكذلك بالله تعالى واصفًا صفا عظيمًا لأوليائه إذ يقول عز من قائل: "فلأَطَمْ نَفَسْكَ ما أَخْفَى لَهُمْ مِنْ فَرْقَةٍ أَعْجَمٍ؟" [السجدة: 17]

فقد أخبرنا أنه جاز في الكمال، والنعيم، ورَقة العيون وصف الواصفين، ومعرفة المكارم، وذكر الذاكرين لجميع التمتع. فعظم في قلب جوار مولاه وما أعد فيه لمن أتى إليه وأطاعه، فشخص إليه بعقله: فائنص ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كانه رأى عينه كما قال حارثة: (فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارى، وإلى أهل الجنة يتزاورون)

وكما قال الحسن وذكر أولياء الله في الدنيا فقال: (صَدَّقوها بى فكأنما يرون ما وعَدنوا رأى العين).

فلم اتصل عقله بمشاهده ذلك حن والختان، فلم حن والختان تعلق قلب.

واشتغل، فلم اشتعل بالشوق إلى جوار ربه سال عن الدنيا قلها عنها، فمن تفكر في دار الدنيا- آين هي من جوار ربه إذ يقول عز وجل: "لَعَلَّكَمْ تَفْكُرُونَ فِي النَّارِالأخرى؟" [البقرة: 219]. قيل في التفسير: تفكروا فيهما فعلما أن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة دار جزاء وبقاء- فعقل نعم ربه لزوار الدنيا ووفانها، وأن كل ما أخذ منها لغير الغرية إلى ربه في جوارها ناقص من درجات القرب، وكمال التعين في جوار ربه، وأن فيه الحساب والسؤال عن نعيمها بالحبس عن السابق في
أوائل الزمر إلى جوار ربيه ومولاها، وأنها مشغولة به عن الاشتغال بربيه ما دام فيها.
حتى ما يعدل من الأنس بربه وحلاوة مناجاة سيده.
فارتفع قلبه عنها، وتمتى أن لو استغنى أن يتناول منها شيئاً، فلم يجد بدأ
من الأخرى منها ما يقويه على طاعة ربيه خوفاً أن يفسك عن القوى فيقطع عن
عبادة ربيه.
فكان نصيبها منها القوى من الغذاء، ولم يتكلف ما جاز بلغة القوى من غذائه وسحر عورته، وإن تكلف طلبه لم يتكلف إلا للقربية إلى ربيه، فإن ابتلى منها بما فوق غذائه وسحر عورته من مثل ميراث أو غيره فهداه فمجرد كله لربه يفرح بإخراجه.
ويعلم أن يمكن عنه أقل من طرفه عين.
وعقل عن الله تعالى أنه في تدبيره وحكمته في آثار صنعته، ودلائل حسن
تقديره: فعلم أنه له بقدرة نافعة قدرهها، وبحكمته كاملة أتقنها، وعالم محيط
اختترها، ويدعم نافذ سمع حقكاتها، وينص مدرك لها ذكر لطائف خلقها.
وغواصين كواءنها، وما واردته حجبه وسواه.
فاستدلال ذلك أنه الإله العظيم الذي لا إله غيره ولا رب سواه. فكان جميع
الأشياء عينه يحبها، ويجل ويعلم بما يرى ويسمع من مولاه وسبيده، فقام
ذكره وزلت عن الله عز وجل غفلته، وعقل عن الله تعالى أنه ما يبلغه غاية العلم
به، ولا بلطائف محببه، والقرب إليه والفوه لما كلهه به، فكان مع سيده اجتهاده.
ودوم اشتغاله بربيه، غير تارك ولا منقطع عن طلب الازدياد من العلم بربيه.
والنزعة في الفقه عنه عقل في قلبه، وعظم عنده قدره من الأزدياد من كثير
أعمال التواfel إذا عقل عن ربيه أن أقل قبل المعرفة يورث التعظيم والهيبة، ويبعث
على الاجتهاد، ويوبر الطاعة، والشغف عن جميع العباد.
وعقل عن الله تعالى أنه أبدأ عباده بالرحمة والتفضل والإحسان بعد تقديم
العلم منه لهم أنه سيغصونه ويخالون أمره قلب يمنعه ذلك عن إبطالهم بالتموم
وتضحية الرحمة والإحسان. وجعل أفصل أولئك عنده الرحمه بخلقه،
المتحايرون عليه عباده الناصحين لربه، وهم رسوله الداعون العباد إلى نجاتهم،
والمحذرون لهم من هلكتهم، المتحملون منهم الأد، المتحليون عليهم بالرحمة
والصح والإشفاق، مع أهاله لهم، وتذكيرهم إياهم، واستهراهم بهم: لا يكافؤونهم.
بمثلك ما نالوا منهم، ولا ينصرون عن الإشباق عليهم إذ شيعوا الله جل ثناؤه.

وصفهم إذ قالون نوح: "بأنا أنزل في صلالة رِبّكم، [الأعراف: 26].

وقال الله: "بأنا أنزل في صلالة [الأعراف: 26].

ثم وصف عبدهما فقال نوح: "ليس بِصلالة ولكن بِرسُول من ربِّالعالمين" إلى قوله تعالى: "ولعلكم تُتُلَّحمون" [الأعراف: 61].

وصفت رأسهم عليه فقال: "بأقم لِسَلَات رَبِّي وأنا لكم ناصح أمين" إلى قوله تعالى: "لعلكم تُتُلَّحمون" [الأعراف: 161]. أي تطوفون بثواب الله إن قبلكم منى، فأخبرهم بعد تسفيهم هذه أن له ينصف من أجل ذلك عن النصيحة لهم لعلهم يلقحون.

وقال إبراهيم عليه السلام: "فمن يبعثه فإنه متي ومن عاضب فإنه غفور رحيم" [إبراهيم: 36].

وقال النبي: ووصف النبي نفسه من الأنباء شجاعة قومه فهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

وزوى أن نوحًا عليه السلام كان يخصص قومه حتى يعشي عليه فإذا أفاق قال: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

وفقًا النبي صديق هذه الأمة عليها بالرحمة لها، فقال: "أرحم أنتى بها أبو بكر".

فلما عقل عن الله عز وجل ما ابتدا العباد به من الاحبة، وأنه خص أعظم خلقه عنده قدرًا، وفضل بها على جميع العباد، ألزم قلبه رحمة الأمة فأححب مصمه، وأشرف على مسيمه، ودعاه إلى الله سبحانه وتعالى، إذا أمكنه، وله يذكر مالاً عن فقيرهم ففضل ماله عليهم مبذولاً، والمواساة في قوته منهم المجهود. من ساقة منهم ما يقدر عليه لم يترفع ببطليه، ولم يضجر بإعطائه للرحمة التي ليهم في قلبه، ومن آداه وأساء إليه لم يجده في نفسه كرامةً للعفو والصفح عنه. بعدهم جميعاً كاكبر الحلف منه كبيرهم مثل أبيه، وصغيرهم كولهما، وقرنه كأخيه، فكل هؤلاء يجب الإحسان إليهم، وأن لا يفارق قلبه الشفقة عليهم.
وعقل على الله تعالى عظيم قدره وقدر ما يطلب من ثوابه، وما يخفف من عقابه، وعظيم الأيديئ وكثرة التعيم عنه، وأن جميع خلقه من أهل سمائنا وأرضه لذوا جميعاً واجتهدوا عمر الدنيا كلها وأبدًا ما أداخلنا شكر نعيم ولا أداخلنا ما يحق في عزمته. كيف بالحلول في جواره، والنجاة من عزابه؟

فقد عقل أي رب عبد، وأي ثواب يطلب، ومن أي عقاب وهزعتها preg
نعيم يشكر، والشكر أيضًا ممن هو ومن من به.
فلمما عقل ذلك كلغ عن ربه استقل واستصخر جميع دعوته واجتهاده لعظميت ما عقل من جميع ذلك.

وعقل عن الله تعالى ما وصف به نفسه أنها بالسوء أثارة، وذنوب مسولة، وأنها هي التي جنت عليه ما قد أحصاه ربه عليه، ولم يأمن أن يكون قد حل به عضبة، وأنه لا يكاد يقبل في بعض أحواله أن يتعظر لبعض مساخبه، وأنه قد لزمته عظيم حُجَّة ما خُصبه من العلم، وما من عليه به من المعرفة، دون أكثر العوازم، فاستكر قليل طاعته واستعطمها مع استصار كثير الطاعات من نفسه لأنه أعلم بنفسه ويدونه من ذنوبهم، وأن الحجة عليه أعظم منها عليهم.

وعقل قدر من عصاه وخالفه فيما أمره به؛ فعقل قدر عظيمة من عصاه، وشدة عصابة، وولد المكر في عقابه إن لم يعفا عنه.

فعقل كثرة ذنوبه وسوء رغبته نفسه، ودعاهم همته، وعجبه جهله: إذ كان قد أثار على رضاهم من العبد ما لا معنى لهم في الدنيا ولا آخرة بذلك، ولا نفع ولا ضر، وإنكارهم من الدنيا المكرادات المنخصة الفائئ من هوى، والفاتى هو عنه، والباقي عليه بعد فتائه شدة الحساب، وعظمت السؤال عنه ثم لا يأمن من سخط الله في الآخرة على ذلك أن يجل به.

فلما عقل عن الله عز وجل جميع ذلك من نفسه، وتسن عن عامة ذنوب الخلق، وحقفت عليهم الحجة بدون ما وجبت من الله عز وجل من أجل العلم الذي استودوه، والستر عليه لذنوبه وما حببته إلى عباده: لم يأمن أن يكون استدراجًا له، وأنه وَكَلٌ بالخوف على نفسه قبل غبره، وأنه لا يأمن لسالف ذنوبه، وعجبه في من شكر نعمه وبره، وعظميات ما زمعه من الحجة، وأن يحن له بغير دين الإسلام، أو بعظيم الذنوب مع الإيمان: فلم تقع عينه على أحد، ولم يستمع به من المسلمين إلا خاف.

81
أن ينحو ويهلِك هو دوْنَهُ. يكسر قلْبِهُ من يرى من أُهل الطُّاعات، ويقطع عليه أنَّه خُبَر مَن. وَيَتمَّنّ أن يَكون مثله، وَيَبِيجِ عليه الخوف من قلبه مَن رأى دوْنَهُ في الدينين يخفَف أن يهَلِكِ هو دوْنَهُ، أو يَخْتَمّ له بأُشر الأُمُور لِتَعْظِيمِ حُجّةِ الدُّلُوْم، وجعل السَّلَطَة عليه، ولَمَا أُمِرَ به مَن خُوَفٌ سَوَء الحُوَائِم التي مات عليها الأُشْقَياء، فهو مَتوَلَّيانٌ للعُمَّادُ كُلْهُم لَشَدَّة ذَلِك الخوف على نفسه.

وعَقِلَ عَنِ اللَّهِ عزّ وَجَلَّ مَا بُيِّنَ مِن قِدْرِ الدُّنْيَا والَّدَيْرَة فَعَقِل، صَفَة الدَّيْرَة بَنَعْيَمَهَا وَمَلْكُهَا وَشَرِفَهَا وَزَوْجَةٌ، وَعَظِيم مَدْرَسَهَا سَكَانُها أَنَّهَا فِي جَوَارِ الدُّنْيَا، وَمَا وَصِفَ بِهِ سُوء عَيْشِ الدُّنْيَا وَضَعَفَ رَفَعَهَا عِنْدَهُ يَوْم يَحَاسِب عِبَادَهُ، وَذَلَّ الْعَزِيزُ بِهَا عَنْهُ يَوْم يَبِعُتْ خَلْقَهُ وَحَقَّةَ المَتَّكِبِينَ فِي عِينِهِ، وَصَنِعَ بِهِمْ يَوْمُ الْيَوْم، وَسَلَّمُهُمْ إِلَيْهِمْ لَيْحَشْرُونِ فِي صُوُرَ الدَّرْرِ دُونَ جُمُعٍ العِبَاد .

وعَقِلَ عَنِ اللَّهِ عزّ وَجَلَّ مَا أَمَرَ به، وَأَخْبَرَ أنَّ الفَقيرَ مَن اسْتَغْنَى بِالدُّنْيَا عَنْهَا، وَمَن يَجَازَ أَبَاهُ بِمَا حَرَّمَهُ مِنْ خُفَةِ الحُسَابِ والْبَصَارِعِ فِي مُعَلَّى دِرِجَاتِهِ، فَلَمَّا عَقِلَ ذَلِك كَلَّهُ عِنْ رَبِّهِ كَانَ الفَقِيرُ فِي الدُّنْيَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ النَّفْقِي بِهَا، وَكَانَ التَّوَلَّاءَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ الْوَرَفِ بِهَا.
مسألة في العقل

الحجة حجتان:

عُبَّانُ ظاهرُ، أو خَبَرُ قاَهِرُ.

والعقل مضمَّن بِالدليل، والدليل مضمَّن بالعقل.

والعقل هو المستدلُ.

والعْيَانُ والخَبَرُ هما عَلَّة الاستدلال وأصطلُ.

ومحال كُون الفَرْعُ مع عدم الأَصِل، وكُون الاستدلال مع عدم الدليل.

فَالعِيانُ شاهد يَدلُ على غيب.

والخَيَرُ يَدلُ على صِدقٍ: فَمَن تناول الفَرْعُ قبل إِحكام الأَصِل سُفهَ.

وَرَبِّ حقَّ أُحق قُرَى خَيَرَ كَمْ عَدُومًا وَمِن أَقْتَصَد، وَكَأَقْتَصَدَ الدِّينِ سَمَّاَة مَحْلُو.

أَوْ تَرْكَهُ قِلِيلًا إِحسانًا إِلَيْهِ، فَقِدَ أَحْسِنَ فِي الْطَنَبِ.

فَكَمْ مِنْ حَسَنٍ أَحْسِنَ مِنْ حَسَن غَيْرِهِ، وَقَبَيْحَ أَقْبَحَ مِنْ قَبَيْحٍ، وَفَرْضٍ أَوجْبَ

مِن أَخَرْ، وَفَضْلٍ أَفْضِلٍ مِنْ فَضْلٍ أَخَرْ.

والخَيَرُ والبَعْضُ إِذَا أُفْرَتَا أَنْقَصَاء الْاعْتِدالَ، وأَفْسَدَا العَقلَ، وَصَوْرَةُ البَاطِلَ فِي

صُورَةً الْحَقِّ.

فَأَهْلُ السَّرْ قَالُونَ بَيْنَ أَنْمَتِهِمْ كَمَا لا يُفْرَدُونَ بَيْنَ إِمَامِهِمَ.

وَإِنَّ الْحَقَّ فِي كُلُّ أَمْرِ بَيْنِهِ، البَاطِلُ فِي كُلِّ حَالٍ دَاحْلِهِ، إِلَّا أنَّ كَثِيرًا مِنْ

الناس لا يُعْرَفُ وَجْهًا مَّطلِبِهِ، وَبَعْضُهُمْ يُعْرَفُ بَعْضَهُ وَيَجِهُ بَعْضَهُ، وَمِنْهُمْ مِنْ

عَرَفُ ثُمَّ نَسَى، وَمِنْهُمْ مِنْ يَعْرَفُ أَكْثَرُهُ وَلَا يَعْرَفُ أَسْهَلَ طُرْقِهِ، وَأَقْرَبَ وَجِهَهُ
فجميع الحق في فنون الطاعات، وتحديد الباطل في مذاهبه إذا جمع وألف، وكان أنشط لحفظه، وفهمه من كان لا ينشط لأن يطلب عمله حتى يجمعه.
والعالم به يريد جمعه في بصيرته، وجمع كل مذهب إلا خبر الواحد لن كنان لا يعرف إلا بعضه.
وذكر الناس بما قد علمه فنونه، ونبوءة المتلاحون لما كان قد استقل عن العبادة بالقيام به، وثبت للزائف عن طريق الرشد أنه قد تركه. ولعل من نظر فيه بالإعجاب برأيه أن ينقض مذاهبه، إذا فهم حسن العبارة عنه، وإيضاح حججه، ونور بيانه: ينتمي من رقته، ويقيق من سكته، لأن الحق عزى أين كان، والباطل ذليل في كل أوان.

* * *

والحجة ظاهرة بتروريها على الشعب.

وليس من تفرد بكتاب يقرأه وحده منتبثًا فيه: لا يغلبه عليه سبب يقطعه.
كمن نازع غيره لأنه يعترض في المناظرة، أفاته كثيرة من العجب بالرأي،
والذي يمنع من الفهم الأفته التي تمنع من الخضوع للحق، وحبي الطلب الذي يبعث على الجهل، والجزء من التخطئة التي تمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب.
فلم كثرة أفاته المناظرة، وكان التفرد بقراءة الكتاب المجموع فيه،
والمؤلف فيه حدود الحق، رأى أن أصفهٍ مبينًا، وأشاشة عليه الكتاب والسنة
واجماع الأمر أو استنباطًا ببينة، أو قياسًا إذا عدم البيان بالنصح فيما يجوز فيه
القياس، وإلا فالتسليط، والأصنام الكف عن تكلف ما نهى عنه مما يسمع جهله، ولا
يؤذى علمه إلى القربي، بل ترك البحث عنه هو القربي والوسيطة إلى رضي الله
وجل.

ولا غناء بالعيب عن التفكير والناظر والذكر ليكثر اعتباره، ويزيد في علمه.
ويعلو في الفضل.

فمن قل تفكك قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه كثير
جهله، وبجان نقضه ولم يجد طعم القيم، ولا برز اليقين، ولا روح الحكمة.
وما بلغ علم مَنْ درس العلم بلسانه، وحفظ حروفه بقليبة، وأصرَبْ عن النظر
والتقليد والتدبر لمعانيه وطلب بيان حدوده؟

ما أقربته في حياته من حياة البهائي التي لا تعرف إلا ما باشرته بجوارتها،
لكن المتذكر الناظر فيما يسمع، المتدبر لما علم، المتفهم لما به أمر، الطالب
لنتهية حُدود العلم، الخائص على غموض الإصابة، المحكم للأصول، الرائد عليها
الفروع، هو المشرف بين ما له وما عليه، والمبصر لما يُصلَح به وما يفسده القوى
على عصيان طبائعه المنازعئة إلى ما يُباَلُكْه، والمخالف لشهواته التي ترديّه.

عئف ببعوقات الأمور ويا ما يحدث في غابه الزهور مما حدث منه وهباب ربه،
المؤثر لِذَهُ عُقْبِه على لَذَة هواه. لَذَة الحكام العلماء في عقولهم ولَذَة الجهاد والبهائي في شهواتهم.

وقأى سُرُر بِعدل سُرُر العلم وروح البقين، وعظم المعرفة، وكثرة الصواب،
والطفر الذي لا يثبت ولا ينال إلا بحسن النظر، وطول التذكر، وتكرار الفكر،
والتقديم في التكبير.

فذلك ظفر بالعلم بالله، والتعرُفُ لولايته، وطلب الجامع عنه، والتسليم لأمره،
والتوكل على كفاهته، وبدل القليل من الدنيا للتواب الجليل: لأنه الرهب الكريم.
من طبيبه وحدة، ومن استكفاها كفاه، ومن اتقاه وقاه، ومن تقرب إليه أسرع
إليه بالإجابة.

بدعوك إن أدبرت وينبذتك إن رجعت، ويعمدك على حظك، ويتبنى عليك بما
وهب لك، ويسقطك على النظر لنفسك.

إِنما يُمرضُك لِيُصَلِحُك - إن عقت - ويفقرِك ليُغيِنك، ويسعك لِيُنْكِم، يِمْعَك
القليل الفاني لترضي: فيعطيك الجميل الباقى، ويضحكك ليحننك، ويفشلك ليَشتكك،
ويضحكك بالأموراً لَبَْرَأَ من سقم الذنوب، ويندعك الأوجب لِيبلغك من دشر
الخطاوات، ويعركك بالبلاء ليلبَنَ قلبي لطلب الفوز.

ابتدأ بالنعم قبل أن تسأل، وثنَاتَا بعدما ضَرِعت شكره، وآدامها بإحسانه
مع دول الإعراض مَنْ كل عنه، فكيف تعرف إحسانه، وتبين إساءتك، وتبصر

85
نَنْتَبِحُ لك أسباب عَيْشْكَ إِلاً بالنظر بعَفْقَكَ فيما قالَ والذِّكْرُ والمِجاهِدَة
لَنْفْسِكَ إِلاً لتَعْرِفَ ما يُرْضَيهُ وْتَنَحِّبُ ما يَسْخِطْهُ، وَيَبْعَعُ منهُ؛ لِأَنَّهَا قدَ جَعَلَ فيكَ
غَرِيزة العقل، وَمَنْ عِلِيكَ بِالمِعْرِفَةِ، وَابتِلَاكَ بِمَا في طِبْعِكَ مَمَا يَهْيَى الْغَضَبَ
والرَّضْيِ والبَخَلِ السَّكُوتُ لَأَنَّ الصَّمَّتِ أَعْجِمُ، وَفَاعَلَهُ كَالْأَخَرِسٍ لَا يَعْرِفْ مُعْنَاهُ
إِلاًّ صَاحِبَهُ، وَالقَولُ فَصَحِيحٌ مِنْ فَصَحِيحٍ سَامِعٍ، وَمَنْ بَلْغَهُ إِلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَّا
يَعْرِفَ القُولَ الْحَقَّ بِالصَّمَّتِ، وَلَا جَمِيعِ الأَعْمَالِ بِالْحَقِّ إِلَّا بِالقَوْلِ، بَلْ لَا يَعْرِفُ
الصَّمَّتِ عَنَّ البَاطلِ إِلَّا بِالقَوْلِ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ الكِتَابِ.

وَإِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّمَّتِ لَتَرْكِ القُوْلِ بِالْخِيْرِ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ بِعَمَنْ بِاللَّهِ
وَلِهِمَا أَخَرِ فَلْيَلْقِلَّ خَيْرًا أوَّلَصَمَتِهِ.»

وَلَمْ يَعْرِفَ الأَدَاةَ وَالبَيْانَ عَنْ جَمِيعِ الإِحْسَانِ إِلَّا بِالقَوْلِ.
في العقل:

وأَلَّهُ خَاطِبَهُمْ بِهِ مِن قَبْلَ أَبْيَبَهُمْ، فَقَالَ: "إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" [الرعد: 19].


الجاثية: 14. لأنه جعل العقول معادن الحكمة، ومُقَتِّبَات الأرافق، ومُستَنَبِطَ الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأتى كل مُحْصُولٌ، وبها يُسْتَدْلِلُ على ما أَخْبَرَ به من عِلْمٍ الغيوب، فيها يَقُدُّرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجوها، وعَنْهَا تَصَدَّرُ الجوَّارِحَ بالفعال بأمرها، فتُسَارِع إلى طاعةها أو تُزُجِّرُها، فتمسك عن مكروهها.

فَمَعْلَمَ نِعْمَتُهُ لَهَا عِلْمٌ خَالِصٌ مِن خَلْقِهِ، فَهُمُّهَا عِنْدَهَا قُوَّةُ بِعَقُولِهَا. فَاتَّقُنَّ لِهَا

ما خَفَى عَنّ الأبصار.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أنَّهُ آتِيَلَ كِتَابَهُ، لِيَذَّكَّرُوا آبائِهِ بِعَقُولِهِمْ، وَيَذَّكَّرُوا مَا قَالَ بِأَبِيَّهِمْ:

وَقَالَ: "كِتَابِ أَنزَلْنَا إِلَى بَرَكَةٍ، فَمَضِوا بِالْبَرَكَةِ، لَعَلَّهُمْ يَلْبِسُوا عَلَيْهَا النُّجُومَ، وَيَصَلُّوا بِمَنْفَعَة الْزِّكْرَى وَالْكَرَامَةَ، ثُمَّ قَالَ: "لَيَدْخُلُوا آيَتِهِ" فَأَخْبَرَهُ أنَّ آنِزَلَهُ لِيَذَّكَّرُ وَيَتَفَكَّرُ، وَخَصَصَ بالِتَفَكَّرِ وَالذُّكْرِ أَهْلُ العقول، أولى الألباب (1).

(1) المعحاصي [كتاب فهم القرآن ومعانيه] ص: 367-368
(2) المصدر السابق: ص: 675.87
الحمد لله الذي اجتبتى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة، وخصّصهم من بين سائر الغرق بمزايا اللطف والمنة، وأفساح عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنقظ أسلنتهم بحجته التي قمع بها ضلال الملحدين، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين، وظهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمر أفنّدتهم بأنوار اليقين، حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه ﷺ، وصفى محمد ﷺ، سيد المرسلين.

وأطلعوا على طريق التلفيق(1) بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاناة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية(2) وجوب الجمود على التقليد وإتباع الظواهر، ما أتى به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواعط الشرع ما أتى به إلا من خبث الضمائر، ف.Claims أولئك إلى التفرقة وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط.

بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد، ملازمية الاقتصاد، والاعتماد على الصراب المستقيم، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم.

وأني يستنب الرشد لمن يقع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر؟ أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي يُعرف به صدقه فيما أخبر؟

(1) من التلفيق: أي الجمع والوصل والتوفيق.
(2) الذين يقون عند ظواهر التصور لعجزهم عن النظر في مقتضيها.
وكيف يهتدى للصابون من اقتاف محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبشر؟ فلم يشعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعترفه العي والحس، أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟

هيهات قد خاب على القطع والبنتات، وتعثر بأيدي الضلالات من لم يجمع
بتأليف الشرع والعقل هذا الشبات. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والأذاء،
ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخفق بأن يكون طالب الاهداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل
مكتفيًا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغضومًا للأجفان، فلا فرق بينه
وبين العيان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما
على الخصوص متدلًّ بحب الغرور.

وسيرتضح لك أيها المشوه إلى الأطلال على قواعد عقائد أهل السنة,
المقترح تحقيقها بقواقع الأدلة- أنه لم يستأثر بالتوافق، بالجمع بين الشرع
والمحقق، فريق سوى هذا الفريق (1). فقد عرفت بهذا أن العين أولى بأسم النور
من النور المعروف المحصور، ثم عرفت أن العقل أولى بأسم النور من العين، بل
بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال به إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم
دونه.

(دقيقة):

اعلم أن العقول، وإن كانت مبصرة، فليست المبصرين عندها على مرتبة
 واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة، كالعلوم الضرورية، مثل علمه
بأن الشيء الواحد لا يكون قديمًا حديثًا، ولا يكون موجودًا معدومًا، والقول الواحد
لا يكون صداقًا وكذبًا، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جواره ثبت لمله، وأن الأخص
إذا كان موجودًا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وُجِد السواء فقد وجد اللون; وإذا
وجد الإنسان فقد وجد الحيوان. وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من
وجود اللون وجود السواء، ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من
القضايا الضرورية في الواجبات وال زمنيات والمستحيلات.

(1) (الاقتصاد في الاغتيال) ص 202.
ومنها ما لا يقارن في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن يهتز أعطائه، ويستوري زنادته، وينبه عليه بالتنبيه، كالنظريات، وإنما ينبغيه كلام الحكماء، فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصيرًا بالفعل بعد أن كان مبصيرًا بالقوة، وأعظم الحكماء كلام الله تعالى، ومن جملة كلماته القرآن خاصة، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظهارة، إذ يتم الإباحة، فالحريّة أن يسمى القرآن نورًا، كما يسمى نور الشمس نورًا، فمثال القرآن نور الشمس، ومثال العقل نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: فأفتحوا باب الله ورسوله وثوب الذي أنزلناه، [التوبة: 8]. وقوله تعالى: فإذا كم برزقه من زينكم، وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا، [النساء: 175] وقوله تعالى: وللإشراف بقوله تعالى: وكذلك أوجينا إلى نورها من أجرًا مكنت تذري ما كتبنا ولا يعنون ولكن جعلنا نورًا نهدي به من نساح من عبادنا ونأتلك لنهدي إلى صراط مستقيم، [الشورى: 55].

ولا يبعد أيها المعتقد في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طورًا وراء التمييز والإحساس يكتشف فيه غرائب وعجبات يقصر عنها الإحساس والتميز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك.

والأخير في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورًا ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقيها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده.

وإن ما ينتظره في الآخرة هو مسرح إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب، إذ ليس مجال للعلوم التجريبية إلا بما يكشف على سبيل التكرر، ومن الذي رجع من ذلك العالم فأدرك بوضوح ما نعى وضح، وآخر عنه؟ ولا يدرك بقياس العقل، فإن العقول قاصرة عن ذلك، والعقلاء بأجمعهم معرضون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت، ولا يرشد إلى ضرور المعاصي ونعى الطاعات، لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد، كما وردت به الشرائع، بل أقرنا بجزمهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبيّة، وهي قوة وراء قوة العقل، يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية، وهذا مما أتفق عليه الأواصر من الحكماء، فضلاً عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظورهم على الاقتباس من حضرة النبيّة، المقررين بقصر كل قوة سوى هذه القوة.

90.

(1) [مشاركا الأئذان] ص 36.51.
(2) [المستوى على غير أهل] ص 36.5.177.
(3) [الجاح العوام عن علم الكلام] ص 21.171.
إن ما لا يُعلَم بالضرورة ينقسم إلى:
ما يعلَم بدليل العقل دون الشرع.
وإلى ما يعلَم بالشرع دون العقل.
وإلى ما يعلَم بهما.
أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع فهو حدوث العالم، ووجود المحدث، وقدره، وعلمه وإرادته، فإن كل ذلك ما لم يثبت لم يثبت الشرع، إذ الشرع يبني على الكلام، فإن لم يثبت كلام النفس لم يثبت الشرع، وكل ما يتقدم في الرتبة على كلام النفس يستحيل إثباته بكلام النفس، وما يستند إليه، ونفس الكلام أيضًا فيما اعتنناه لا يمكن إثباته بالشرع، ومن المحققين من تكلف ذلك وادعاه.
وأما المعلوم بمجرد السمع، فتخصيص أحد الجائزة بالوقوع، فإن ذلك من مواقف العقول، وإنما يعرف من الله تعالى بوحي وإلهام، ونحن نعلم من الوحي إليه بسماع كالحشر والبشر والثواب والعقاب وأمثالها.
وأما المعلوم بهما، فكل ما وارد السمع به متطرف في مجال العقل ومتأخر في الرتبة عن إثبات كلام الله تعالى، كمسألة الروحية، وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والأعراض (1) كلها وما يجري هذا المجري، ثم، كل ما ورد السمع به ينظر، فإن كان العقل موجزاً له وجب التصديق به قطعاً إن كانت الأدلة السمعية قاطعة في منتها ومستندة، لا يتطرق إليها احتمال، وووب وجوب التصديق بها ظنًا إن كانت ظنية.
وأما ما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمقول، وظواهر أحاديث التشبيه أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل، فإن توقف العقل في شيء من ذلك فإن قضى فيه باستحالة ولا جواب وجوب التصديق أيضًا لأدلة السمع، فيكفه في وجوب التصديق انتقال عقل عن القضية بالإجالة، وليس يشترط اشتماله على القضية بالتجويل، وبين الرتبتين فرق ربما ينزل عن ذهن البلاد.

(1) مفردة عرض - يفتح العين وإلا - وهو المقابل للجوهر والذات، وهو يقوم بغيره لا يقاسمه.
(2) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص 131، ص 132.
والإله والإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل. فإن أراد بنبو العقل أن برهان العقل يدل على استحالتة، كخلق الله تعالى مثل نفسه، أو الجمع بين المتضادين، فهذا ما لا يرد الشرع به.

وإن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه، ولا يستقل بالإحاطة بكتبه، فهذا ليس بحال أنه يكون في علم الأطباء مثل جلب المغناطيس للديد، وإن المرأة لو مشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين، وغير ذلك من الخواص، وهذا مما ينبو عنه العقل، بمعنى أنه لا يقف على حققيته، ولا يستقل بالإطلاع عليه، فلا ينبو عنه الحكم باستحالتة، وليس كل ما لا يدركه العقل محالة في نفسه. وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يتصور كونه(1).

وأما أتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحقا حقا وقواهم على اتباعه(2). لمن شاء كان رأس مال كل السعادات العقل(3).

إن في قلب الإنسان عينا هي صفة كمالها، وهي التي يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنسانية.

والعقل أولى بأن يسمى نوراً من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقانص.

السبع:

أما الأولى: فهو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه، ويدرك صفاته نفسها.

الثانية: أن العين لا تبصر ما قرب منها قريبًا مفرطًا ولا ما بعيد، والعقل عنده يستوى القريب والبعيد.

الثالثة: أن العين لا تدرك ماوراء الحجاب، والعقل يتصرف في العرش والكرسي وما وراء حجب السماوات. كتصرفه في عالمه الخاص به.

الرابعة: أن العين تدرك من الأشياء ظاهرة وسطحها الأعلى دون باطنها، بل قوالبها وصورها وأرواحها، دون حقائقها، والعقل يتغلف في بواطن

(1) [المسند بن أبي إسحاق] ص 319، 318.
(2) [الاقتصاد في العقائد] ص 98.
(3) [رسالة الغزالي إلى ملك شاه في العقائد] ص 79.
الأشياء وأسرارها، ويدرك حقائقها وأرواحها وينستنبث أسبابها وعلماً وحكمتها...

والخامسة: أن العين تبصر بعض الموجودات، إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، ولا تدرك الأصوات ولا الروائح ولا الطعام والحارة والبرودة والقوى المدركة. أعني قوة السمع والشم والذوق، والموجودات كلها مجال العقل، إذ يدرك هذه الموجودات التي عدنانيا وما لم ندعه، وهو الأكثر فيصرف في جميعها، ويعكم عليها حكماً يقينًا صادقاً...

والمستديسة: أن العين لا تبصر مالاً نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام والمعلومات والأجسام لا تتصور إلا متناهية، والعقل يدرك المعقولات، ومعقولات لا تتصور أن تكون متناهية. إنه يدرك الأعداد، ولا نهاية لها. ويدرك أنواعاً من النسب بين الأعداد، ولا يتصور لها نهاية.

والسادسة: أن العين تدرك الكبير صغيراً، فترى الشمس في مقدار مجرد، والكواكب في صورة دنانير متوازية على بساط أزرق، وترى الكواكب والظل والصبي ساكنة، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، ويرى نمو الصبي...

فالعين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، والعقل أولى باسم النور من العين.

(1) [المستسي من علم الأصول] ج1 ص315 ق1076، طبعة دار صادر، بيروت.
(2) [أسارار المعلومات] ص77 - طبعة تونس سنة 1992م.
(3) [مشكاة الأنوار] ص436، 39.43.

(4) [الأصول الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل] (3)
فَي السِّيبِيَة:

إِنَّا نَعْلِمُ أَنَّ النَّارَ خَلَقَتْ خَلِقَةً إِذَا لَا أَقَامَا قَطْنَتاً مِثْمَالِتَانَا أَحْرُقُتُهُمَا، ثُمَّ تَفْقِرُ بَيْنَهُمَا إِذَا تَمِثَّلَا مِن كُلِّ وَجْهٍ.

ولكننا، مع هذا، نَجُوْزُ أَنَّ يَلْقَى شَخْصٍ فِي النَّارِ فَلا يَحْتَرَقُ، إِمَّا يَتَغْيِرُ صَفَةُ النَّارِ أَوْ يَتَغْيِرُ صَفَةُ الشَّخْصِ، فَيَقْدَرُهُمَا أَوْ لِلَّحْيَةِ أَوْ لِمَلائِكَةِ صَفَةِ فِي النَّارِ تَقَوْسُ سُخُوْنَتَهَا عَلَى جَسَدهَا، بِحَيْثُ لَا تَتَغَدَا، وَتَبَقُّى مَعَهَا سَخُوْنَتَهَا، وَتَكُونُ عَلَى صَوْرَةِ النَّارِ حَقْيَقَتِهَا، وَلَكِنَّ لَا تَتَعَدَّى سُخُوْنَتَهَا، أَوْ يَسْخِرُهَا، وَقَدْ يَحْدُثُ فِي بَيْنِ الشَّخْصِ صَفَةً وَلَا يَخْرُجُهَا عَنْ كُونُهَا لِحَمَّا وَعَظَمًا، فَيَدْفَعُ أَثَرَ النَّارِ، فَإِذَا نَرَى مِنْ يُطْلِبُ نَفْسِهِ الْكَلَّامَ(1) ثُمَّ يَقْعُدُ فِي تَنْثِرُ مَوْقُودٍ فَإِنَّهُ لَا يَتَأْثِرُ بِالنَّارِ، وَالذِّي لَمْ يَشَاءَ ذَلِكَ يَنْكِرْهُ، وَإِنْ كَانَ الخَصْمُ اسْتَخْلَاصُ الْقَرْدَةِ عَلَى إِثْبَاتِ صَفَةٍ مِنِ الصَّفَاتِ فِي النَّارِ أَوْ فِي الْيَوْمِ الْأَخَرِ، مَنْ لَمْ يَشَاءَ الْطَّلَقُ وَأَثِرُهُ.

وَفِي مَقْدُورَاتِ اللَّهِ تَعَالَى غَرَائبٌ وَعَجَابٌ، وَنَحْنُ لَمْ نَشَاءَ جَمِيعُهَا، فَلَا يَنْبِغِي أَنْ يَنْكِرَ إِمَاكَانُهَا وَيَحْكُمَ بِبَاسْتَحْتَالَهَا.

وَكَذِلْكَ إِحَياَهُ الْمَيْتَ وَقَبْلُ الْعَصَا ثَعْبَانًا مَّكْمِنٍ بِهِذَا الْطَّرِيقِ، وَهُوَ أَنَّ الْمَادَةَ قَابِلَةً لِكُلِّ شَيْءٍ، فَالْتَّرَابُ وَسَأْلُ الْعَناصرِ يَسْتَحْيَيْنَا، فَفَهَّمْنَا شَيْءًا، ثُمَّ الْحَبَّةُ يَسْتَحْيِيْنَا، ثُمَّ الْبَيْطُ يَسْتَحْيِيْنَا، ثُمَّ الْجَرْحُ يَسْتَحْيِيْنَا، وَغَيْرُهُمَا، وَهَذَا بِحَكْمِ الْعَادَةِ وَاَقْعًى فِي زَمَانٍ مُّطَابِعِ، فَلَمْ يَحْبَلْ الخَصْمُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَدْيِرَ الْمَادَةَ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ فِي وَقْتٍ أَقْرِبٍ مَّا عَهْدُ فِيهِ؟ وَإِذَا جَازَ فِي وَقْتٍ أَقْرِبٍ فَلا ضَبْطٌ لِلَّأَقْلِ، فَتَسْتَعْجَلُ هَذِهِ الْقُوّةِ فِي عَمْلَهَا، وَيَحْصُلُ بِهَا مَا هُوَ مَجْزَةُ الْبَنِيَّ.

إِنَّ الْإِقْتَرَابِ بَيْنَ ما يُعْقَدُ فِي الْعَادَةِ سَبِيلًا وَمَا يُعْقَدُ مَسْبِبًا لَّيْسَ ضَرْرُيًا عَنْدَنَا(2)، بِلَّكِلٍّ شَيْئِينَ لِيَسْبُلُ هَذَا ذاَكَ، وَلَا ذَاكُ هَذَا، وَلَا إِثْبَاتٍ أَحْدَهُمَا مَتَضَمَّنُ لِإِثْبَاتِ الْآخِرِ وَلَا نَفْقِ مَتَضَمَّنُ لِنْفِي الأَخِرِ فَلِيسْ مِنْ ضَرْرَةٍ وَجْدُ أَحْدَهُمَا وَجْدُ الْآخِرِ، وَلَا مِنْ ضَرْرَةٍ عَدْمُ أَحْدَهُمَا عَدْمُ الْآخِرِ، مِثْلُ الْرَّى وَالشَّرْبِ، وَالشَّبَعُ وَاللَّكْلُ،

(1) مَادَةَ عَازَلَة.
(2) أيِّ لَيْسَ حَسْبًا لِّلَّذِينَ يَنْكِرُونَ الْغَزْلَاءِ هُمُ الْحَمْيَةُ الَّتِي يَنْقَلِبُ فِي جَوَازِ أَصْبَابٍ عَلَى مَسْبِبِ مَـالِكِهَا عَلَى الْمَسْبِبِينَ. أَيْنَ الْقَافِلِينَ الْحَمْيَةُ يَنْتَكِبُونَ الْمَجْزَةَ، وَيَنْتَكِبُونَ كُونُ الخَالِقِ - سَيْحَانِهِ - مَنْ الْقَافِلِينَ الْحَمْيَةِ.
والاحترق ولقاء النار، والنور وطلموع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء
وشرب الدواء، وإسهام البطن واستعمال المسيل، وهلم جراً إلى كل المتشاهدات من
المقرنات في الطب والنجوم ومن الصناعات والحرف، وإن اقترانها لما سيق في
تقدر الله سبحانه وتعالى لخلقها على التساوي، لا لكونها ضرورية في نفسه غير
قابل للفرق، بل في المقدر خلق الشعيب دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة.
وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم إلى جميع المقرنات.
وأناك الفلاسفة إمكانهم، وادعوا استحالتهم. وعن هذا المعنى أنكروا وقوع
إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - في النار مع عدم الاحتراق، وبقاء
النار ناراً، إذ زعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسبب الحرارة من النار، وذلك بخروجه من
كونه ناراً، أو بقلب ذات إبراهيم وبدنه حجر أو شيئًا لا يؤثر فيه النار، ولا هذا
ممكن ولا ذلك.
إن فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه جعله حراقاً
ورماداً هو الله تعالى، بواسطة الملائكة، أو يغير واسطة، فأما النار فهي جماد لا
فعل لها. وقد تبين أن الموجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به. وإذا ثبت
أن الفاعل بخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقاة القطرنة النار أمكن في العقل أن لا
يخلق مع وجود الملاقاة...(1).

(1) [تهافت الفلاسفة] ص 65-68.
في العقل وشرفه وحقيقةه وأقسامه
بيان شرف العقل

علم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل. والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرد الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستمرون فيه والبهيمة مع قصور تميزها تحتشم العقل، حتى إن أعظم البهائم بدأ وآخذها ضراوة وأقوالها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمها وهباه، لشعوره باستيلائه عليه، لما خص به من إدراك الحيل. وللذى قال(1) "الشيخ في قومه كالنبي في أمته" وليس ذلك لكثرة ماله، ولا لكبر شخصه، ولا لزيادة قوته. بل لزيادة جبره التي هي ثمرة عقله، ولذل ذلك ترى الأثر والآثار وأطراف العرب وسائر الخلق مع قرب منهم من تربة البهائم بقرون المشايد بالطبع، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين من رتبة البهائم يوقرون المشايد بالطبع، ولذلك حين قسد كثير من المعاندين قتل رسول الله ﷺ، فلما وقعت أعينهم عليه واتحلوا بغته الكريمة، هابوا، وتراوا لهم ما كان يتلا لا على دبابة وجهة من نور الله، وإن كان ذلك باطنًا في نفسه بطون العقل، فشرف العقل مدرك بالضرورة. وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والأداب في ذكر شرفه، وقد سماه الله ﷺ نورًا في قوله تعالى "الله نور السماوات والأرض مث كمشكاة" [النور: 23] وسمى العلم المستفيد منه روحًا ووجيًا وحياة، فقال تعالى: "وكذلك أُحثًا إلَّا نورًا مُسْتَفَقِّيًا" [الشعرى: 52] وقال سبحانه: "أوَمَن كَانَ مِنَ الْأَخْيَار فَيَشْفِكَنَّهُ نُورًا يَنْشَئُهُ فِي النَّاسِ" [الأنعام: 122] وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجلل، كقوله: "يُجْرِىُهُمْ مِنْ الْقُلُوبِ إِلَى..." 

(1) من حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته: ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الباجي.

(2) من حديث أبي رافع بسندي ضعíf.
الثر» (المائدة: 16) وقال: «يا أبا الناس اغعلوا عن ريكم وتواصوا بالعقل
تغفر ما أمرتم به وما نهتم عنه. واختلفوا أنه يتجدد عند ريكم. واعلموا أن العاقل
من أطاع الله وإن كان ذمي المثaler حفظ النظر دنيا المنزلة رضي الله عنه. وأن الجاهل
من عصى الله تعالى وإن كان جميل النظر عظيم النظر شريف المنزلة حسن الهيئة
فصبحا نطولا. فالقردة والخنازير أغلب عند الله تعالى ما عصاه. ولفتر تبضعهم أهل
النبأ إياكم فإنهم من الخاسرين. وقال: (2) «أول ما خلق الله العقل فقال له. أقبل
 فأقبل. ثم قال له. أدبر. فأدبر. ثم قال الله عز وجل. وعرني وجلالي ما خلقته خلقاً فكر
على مثل. فقد أخذ. وليك لغطي. وليك أثيب. وليك أعفاه. فإن قال. فهذا العقل إن كان
عوضاً. فكيف خلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهرًا. فكيف يكون جوهرًا قائمًا بنفسه
ولا يتحيز؟

فأعلم أن هذا من علم المكاشفة. فلا يليق ذكره بعلم المعاملة وغرضنا الآن
ذكر علوم المعاملة. وعن أنس (3) قال: أئتي قوم على رجل عند النبي
حتى بالغوا. فقال: كيف عقلم الرجل؟ فقالوا: نحبرك عن اجتهاده في العبادة
وأصناف الخير. وتستنالنا عن عقله. فقال: (4) إن الأحمق يصبب بخيله أكثر من
فجور الفاجر. وإنما يزنتع العبذا إذا في الدوران الدؤلي من رينهم عليه قدر عقولهم.
وعن عمر (5) قال: قال رسول الله (6) «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يذهب
صاحبه إلى مدى وبرده عن رفي واعلمه عينه ولا استقام دينه حتى يكسب
عقله». وقال (7): «إنه الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصانم الغانم. ولا يتم
لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله. فعند ذلك تم إيمانه وأطاعه وجه العمل
أبليس».

(1) حديث أبي بأبا الناس اغعلوا عن ريكم وتواصوا بالعقل. الحديث. ناول. بن الحجر. أحد الضيوف في كتاب
العقل. من حديث أبي هريرة وهو في سنند الحديث بن أبي إسماعيل عن داود.
(2) حديث أنما خلق الله العقل في أقبل. الحديث. الطبري. في الأèles من حديث أبي إسماعيل وأبو العلا.
(3) حديث أن إحد من أئتي قوم على رجل عند النبي حتي بالغوا في الثناء فقال: كيف عقلم الرجل. الحديث: ابن
المجر في العقل. نابه. والترزدي. الحكيم في النوفل مختصرًا.
(4) حديث عمر ما أكتسب رجل مثل فضل عقل. الحديث. ابن الحجر. في العقل وعينه. الحديث. بن أبي إسماعيل.
(5) حديث أن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصانم الغانم. ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله.
حديث: ابن الحجر من رواية عامر بن شبيب عن أبيه عن جده به. والحديث عند الترمذي مختصر دون
قلوه ولا يتم. من حديث عائشة. وصححه.
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، وقبل عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجأ في النار (أو كما نسمع) أو نغفل ما كننا في أصحاب السريرة." 


وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابها الناس إن لكل شيء مطية ومطية المنزل والعقل، وأحسنكم نذابة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقولكم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى، وفلان ونحو هذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمًا هذا فلا علم لكم به، قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ فقال: إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل، وكانت نصرتهم وبيتهم على قدر عقولهم فأصابهم من أصيب على متناول شتى، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا من المنزل على قدر نبائهم وقذر عقولهم.

ما أعطاههم عزّ وجلّ من العقل؟ ف旖ّدّ ما أعطوا من العقل كان أعمالهم وقيدّر ماعملوا يجزؤون»

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء الله وعدّة وعنة وإن الله المؤمن العقل لكل شيءحظية وعظمته المرء العقل وكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل وكل قوم غاية وغاية العبادة العقل وكل قوم يؤذ وداعي العابدين العقل. وكل ناجٍ بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل. وكل أجل بيت قدوم وقيمٌ بيوت الصدقيين العقل. وكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل. وكل أمرٍ عقب يشبٍ عليه ويذكر به وعقب الصدقيين الذي يتبنٍو إليه ويذكر به العقل. وكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل.» وقال ﷺ: «إن أحب المؤمنين إلى الله عزّ وجل من نصب في طاعة الله عزّ وجل ونصب لعباده وكل عقله ونصب نفسه فأصبح وعمل به أيام حياته فافتعل وأنجز.» وقال ﷺ: «اتّهم عقلاً أشتكى الله تعالى خوفًا وأحسنتهم فيما أمركم به ونهى عنه نظرًا. وإن كان أقلكم تطوعًا.»

(1) حديث ابن عباس لكل شيء الله وعدّة وإن الله المؤمن العقل- الحديث: ابن المبحر وعنه الحارث.
(2) حديث أن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله- الحديث: ابن المبحر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في سنين القردوس بإسناد آخر ضعيف.
(3) حديث أنتمكم عقلاً أشتكى الله خوفًا- الحديث: ابن المبحر من حديث أبي قتادة.

99
بيان حقيقة العقل وأقسامه

أعلم أن الناس اختلقوا في حل العقل وحقيقتته، وذهب الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقًا على معان مختلفة، فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكافش للغطاء فيه: أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان، كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عديدة، وما يجري هذا المجرى، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد، بل يفرغ كل قسم بالكشف عنه.

فالأول - الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي، حيث قال في حد العقل: إنه غريزة تتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقفز في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورة، فإن الغافل عن العلوم والنائم يسمى عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيها مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراك الحسية، فيقال: لافرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علومًا وليس يخلقها في الحمار والبهائم، لجاز أن يسوى بين الحمار والجمال في الحياة، ويقال: لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصصة بحكم إجراء العادة، فإن الله لقدر الحمار جمادًا ميثاً لوجب القول بأن كل حركة تشاد منه فئته سبحانه، وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد، وكما وجب أن يقال: لم يكن مفارقة للجمال في الحركات إلا بغرزية اختصته به عبر عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغرزية عبر عنها بالعقل، وهو كمال المرأة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكايته الصور والأنوار بصفة اختصت بها.
وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهينات بها استهدت للرؤية، فمنسية هذه الحقيقة إلى العلم كتسليبة العين إلى الرؤية، وتسمية القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى اكتشاف العلوم لها كتسليبة نور الشمس إلى البصر، فهذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثاني - هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطلب المميز بجواد الجائزة واستحالة المستحيلات: كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواد الجائزة واستحالة المستحيلات. وهو أيضاً صحيح في نفسه: لأن هذه العلوم موجودة، وسميها عقلًا طاهر، وإنما الفائد أن تنكر تلك الغريزة ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث - علوم تستفاد من التجارب بمحارب الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذته المناهب يقال إنه عاقل في الخادعة، ومن لايتصف بهذه الصفة. فيقال إنه غبط جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع - أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقوم الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عقلاً من حيث إن إقامة إلحاحه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا يحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان. فالإمام هو الأسد والسنج (الإمام) والمصري، والثاني هو الفرع الأول إليه، والثالث فرع الأول والثاني: إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثورة الأخرية، وهي الغاية القصوى، فالالواء بالطبع، والأخيران بالإكتساب، ولذلك قال على كرم الله وجهه:

رأيت العقول عقلين مظلم ومظلم، لا يتفعل مظلم، إذا لم ينطبق، كما لا تتفعل الشمس وضوء العين مظلم.

(النسخ: الأصل)

ويشبه أن يكون أصل الاسم، في أصل اللغة للكثير الغير، كذا في الاستعمال.

وإنما أطلق على العلم، من حيث إنها تمر بها كما يعرف الشيء بيئته، فقيل: العلم هو الخشية والعقل من يختشى الله تعالى، فإن الخشية تتمه العلم، فتكون كالمجاز لغير تلك الغريبة، ولكن ليس الغير، يجب أن تكون جميعها، ولايعب يفق على جميعها، ولايعرف أن يوجد جميعها إلا في الاسم الأول، والمحقق، موجودها، بل هي الأصل، وهذه العلوم.

(1) حديث ما خلق الله خلقاً أكرّم عليه من العقل، الترمذي الحكم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن.
(2) حديث إذا تقرب الناس بألوان البر فترقب أنّه يعقل، أبو نعيم في الجليلية من حديث على إذا أكثث الناس من أنواع البر ليتكفروا بها إلى زمن عزل وجلّ قرب فاكثث أجز من أنواع العقل تسبحهم بالزلاقة والقرب، وإسناده ضعيف.
(3) حديث إذا ازدّ عقلاً تزود من زكّ فتّناً - الحديث: قاله لأبي الدرباء: ابن المحيج، ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة، الترمذي الحكم في النوادر.
(4) حدث ابن المسبب أن عمر وأبي بن كعب وأبو حريرة دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: بارسول الله ﷺ، أعلم الناس، قال: العاقل - الحديث: ابن المحيج.
(5) حدث إنما العاقل من أمن الله وصدق رسوله وعمل يطاعته: ابن المحيج، من حدث سعيد بن المبيب، مرسلًا وثقة قصة.
كأنها مضمونة في تلك الغريزة بالفطرة، ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها مستكملة فيها فظهرت. ومتناهيه الماء في الأرض، فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويمتاز بالحس: لا يأت الإنسان إليها شيء جديد. وكذلك البهمن في اللوز، وما الورد في الورد، ولذلك قال تعالى: "وَأَذَّرَّ أَحَدَ رَبِّكُم مِنْ بَنِي آدَمْ مِنْ ظَهْرِهِمْ ذُرُّتِهِمْ وَأَشْهَدْنَاهُ ۛ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ بِرَبِّهِمْ قَالُوا بَلِيۡاَلِى ( الأعراف: 172) فَاللَّهُ مَعُونَةً لَّهُمْ لِيُؤْلِفَنَّهُمْ إِلَى إِقَارَرِ الأَلْسِنَة، فَقَامُوا فِي إِقَارَرِ الأَلْسِنَة حيَّةً وَطَيِّبَةً وَإِلَى الأَشْخَاص إِلَى مَّقْرَةٍ وَإِلَى جَاحِدٍ، ولذلك قال تعالى: "وَلَنَّ سَأَّلُوهُم مِن خَلْقِهِ لِيُؤْلِفَنَّهُمْ ( الزخرف: 87)" معناه: إن اعتبرت أجسامهم شهدت بذلك نفسهم، وبوتائفهم «فطرة الله التي فطر الناس عليها» (الروم: 20) أي كل آدمي فطر على الإنسان بعج عز وجل، بل على معرفة الأشياء على ما هو عليه، أعني أنها كالمضمونة فيها لقرب استعدادها للإدراك.

ثم لما كان الإنسان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين إلى من أعترض فنستى وهم الكفار، والى من أجل خاطره فذكروا فكان كمن حمل شهادة نفسهم بفعلها ثم ذكروها. ولذلك قال عز وجل: "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ( البقرة: 221) ولذا ذكر أول الألباب (ص: 9) "وَأَذَّرَّكُ رَبُّكَ نَغْنَمَتَ (الغافر: 17) وتسمية هذا النمط تذكرًا ليس بعيدًا، فكان التذكير ضربان: أهدهما أن يذكر صوره كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر أن يذكر صورة كانت مضمونة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للانظر بنور البصيرة، ثقيلة على من مستروح السماع والتقليد دون الكشف والعبان، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات، ويتعسف في تأويل التذكير وإقرار النفس أنواعًا من التعسفات، ويتخيل إليه في الأخبار والأيات ضروب من المناقضات، وربما يبلغ ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار، ويعتقد فيها التهافت. ومتناهيه مثال الأوعى الذي يدخيل دارًا فيه içerik بالأواني المصنوفة في الدار فيقول: مالهذة الأوان لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها فيقال له إنها في مواضعها، وإنها الخلل في بصره. فكذلك خلل البصيرة يجري مجراه وأطم مته وأعظم، إذ النفس كالفارس، والبدن كالقمر، وعمى الفارس أضمر من عمى الفرس.

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة، لم يعلق به من الدين إلا قشوره، وأمثلته دون لبابه وحقائقه، فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.
بيان تفاوت النفس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصوله، بل الأولي والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق.
والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوي القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضًا استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديمًا حديثًا، وكذلك سائر النظائر، وكل ما يدركه إدراكًا محققا من غير شك. وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها.
أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا، وإذا كان كبير وتم عقله قد عليه، وشهوة الر_Tag: aradiation تزداد قوة بالكبر لا ضعفا، وقد يكون سبب التفاوت في العلم المعروف لفائدة تلك الشهوة، وهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يسويه في العقل على ذلك إذا لم يكن طبيبًا، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضر، ولكن إذا كان علم الطبيب أم كان خوفه أشد، فيكون الخوف جدًا وعادة له في قمع الشهوات وكسرها، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي، وأعني به العالم الحقيقي دون أرباب الطبالسة وأصحاب الهديان. فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمي هذا الضرب من العلم علما أيضًا، فإنه يقوى غرزة العقل، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه. وقد يكون بمجرد التفاوت في غرزة العقل، فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد.
وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتًا في الغزية.
وأما تقاوَأًا في الممارسة. فأما الأول وهو الأصل أعني الغريرة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صحبه. ومبادئ إشراقه عند سن التميمين، ثم ليست بنمو ويزداد نمواً خفيف التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة. ومثاله نور الصبح، فإن أوائله يختفي خفاء يشق إدراكه، ثم يتدرج إلى الزيادة، إلى أن يكمل بطلع قرص الشمس.

وتفاوت نور البصرة كتفاوت نور البصر، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر. بل سن الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد، حتى إن غريرة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة ورغبة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات. ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريرة فكأنه مندخل عن ربقة العقل.

ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل أحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أحسن في نفسه من أحاد السوادية، وكيف ينكذب تفاوت الغريرة ولولاه لما خالف الناس في فهم العلم. ولما انقسموا إليه بلديد لايفهم بالتفهم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى ذكى يفهم بأدنى ابتعثت، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم! كما قال تعالى: "يَاكذِبُوهُ نَفَسِ الْإِنسَانِ، وَلَا تَنَصَّرُهُنَّ أَنفُسُهُنَّ" (النور 25) وهذا مثل الأذناء عليهم السلام، إذ يتضح لهم في بوطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع، ويعبر عن ذلك بالإلهام. وعن ملته عبر النبي ﷺ حيث قال (1) "إن روح النفس نفث في روعي أحبيب من أحببت فأحب، مفارقة وضع ما شئت فإنك تمثيل وأعمل ما شئت فإنك مجرى به، وهذا النمط من تعريف الملائكة للأذناء يختلف الوحي الاصحاب الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذا أخبر عن هذا بالنفث في الروع. ودرجات الوحي كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة.

ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي، إذ لا يبعد أن يعرف الطبب المريض درجات الصحة، ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خالقاً عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف الذهن والولاية كان نبياً ولا ولياً ولا كل من عرف التقوى والورع ودقاته كان ثقيلاً.

(1) إن روح النفس نفث في روعي أحبيب من أحببت فأحب، مفارقة - الحديث الشيرازي في الألفاظ من حديث سهل بن سعد نحوه الطبراني في الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف.
وانقسم الناس إلى من ينتمي من نفسه ويقيمهم، وإلى من لا يقيمهم إلا بتبنيه وتعليمهم، وإلى من ينفعه التعليم أيضاً ولا التبليغ. كأنقسم الأرض إلى ما يجمع فيه الماء في يقول: فيتفرج بفسده عيوناً، وإلى ما يحتاج إلى الجفر ليخرج إلى القنوات، وإلى ما لا ينفع فيه الجفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوذ في غزوة العقل. وبدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام سألك النبي صلى الله عليه وسلم: "يا نبي الله، هل خلت شيخان عظم من العرش؟ قال نعم، العقل. قالا وما بعده من قدره؟ قال هتان لا يحاط بعلمه. هل لكم علم بعد الدرب؟ قلنا لا، قال الذين عز وجل فانك خلت العقل أصنافاً شئى كعود الرمل، فمن الناس من أعطى حبة، ومنهم من أعطى حبيب، ومنهم من أعطى ثلاثة والأربع، ومنهم من أعطى رفرفة، ومنهم من أعطى وسفاً، ومنهم من أعطى أكثر من ذلك.

فإن قلت: فما بال أقوام من المنصوصة يذمون العقل والمعقول؟ فأعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإ الإسلامي، وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عنهم أن أخطأتهم في التسمية. إذ كان ذلك لا ينصح عن قلوبهم بعد تداول الأسئلة به ورسوخه في القلوب، فذموا العقل والمعقول، وهو المرسي به عندهم. فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ويعبر صدق رسوله فكيف يتصور ذمه وقد أثني الله تعالى عليه؟ وإن ذم فما الذي يعده يحدث؟ فإن كان العلامة المعلوم هو الشرع في علم صحة الشرع، فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضاً مصوبًا. ولا يلتمست إلى من يقول: إنه يدرك بعض الآراء ونور الإسلام لا بالعقل، فإنها تريد بالعقل ما يبرده بعض الآراء ونور الإيمان، وهي الصفوة الباطنة التي يتميز بها الأدمى عن البهتاء حتى أدرك بها حقائق الأمور.

وأكثر هذه التخليفات إنما ثارت من جهل أقوام طلوا الحقائق من الألفاظ ففتكروا فيها لتخطب إصطلاحات الناس في الألفاظ. هذا المقدار كاف في بيان العقل. والله أعلم.

(1) حديث ابن سلام سألك النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرض، وأن الملائكة قالوا: يا يارب هل حالفت شيئاً أعظم من العرض - الحديث ابن المحيي من حديث آنس بثامنة والنزدي الحكيم في التوادر مختصرًا.
(2) الغرق والوسق: نوعان من المكابيل.
فإن الغرض من هذا القول: أن نفحص، على وجه النظر الشرعي، هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع؟ أم محظور؟ أم مأمور به، إما على جهة النذب، وإما على جهة الواجب؟

فقوله: إن كان فعل الفلسفة ليس شيئًا أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها، من جهة دلاليتها على الصانع، أعني من جهة ماهي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعها أن كانت المعرفة بالصانع أتم.

وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وتحت على ذلك، فإنما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع، وإما مندوب إليه.

فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطبب معرفتها به، فذلك بيين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى: فاغتفروا يا أولي الأنصار [الشعراء 2] وهذا نص على وجب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعية معاً. ومثل قوله تعالى: وَلَمْ يُنْظَرَوا فِي مَلَكَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْلَقَ الْجَهَّلَةِ مِنْ شَيْءٍ [الأعراف 185] وهذا نص بالبحث على النظر في جميع الموجودات.

وعلم أن الله تعالى ممن خصصه بهذا العلم وسرفه به إبراهيم. - فقال تعالى: وَلَكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكَتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [الأعراف 65]، وقال تعالى: فَأَفَلَا يُنْظَرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْهَا [الغاشية 18]، وقال: وَيُنْظَرُونَ فِي خَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [آل عمران 191] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تخص كثرةً...

فواجب أن نجعل نظراً في الموجودات بالقياس العقلي...

وليس لقائل أن يقول: إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعه: إن لم يكن في الصدر الأول. فإن النظر أيضًا في القياس العقلي، وأنواعه، هو شيء
استنبذ بعد الصدر الأول، وليس يرى أنه بدعه. فكذلك يجب أن نعتقد في النظر في
القياس العقلي...

وإذا كان هذا هكذا، فقد يجب علينا أن ألقينا لمن تقدمن من الأمم السالفة نظرًا
في الموجودات، واعتبارًا لها، بحسب ما اقتضت شرائط البرهان، أن ننظر في
الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتيبهم، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه
منهم، وسرنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه،
وحذرنا منه، وعذتناهم.

فقد تبين من هذا أن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع، إذا كان مغزاه
في كتبهم ومقصده هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه، وأن من نهى عن النظر
فيها من كان أهلاً للنظر فيها - وهو الذي جمع أمرهم:

أحدهما: ذكاء الفطرة.
والثاني: العدالة الشرعية، والفضيلة العلمية والخلقية - فقد صد الناس عن
الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدى إلى
معرفة حق المعرفة. وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى (1).

وإذا كانت هذه الشريعة حقًا، وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإنها
معشر المسلمين، نعلم، على القطيع، أنه لا يؤدى النظر البرهان إلى مخالفته ما ورد
به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

وإذا كان هذا هكذا، فإن أدلى النظر البرهان إلى نحو من المعرفة بموجودها،
فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون: قد سكت عنه الشرع، أو عرف به.
فإن كان قد سكت عنه، فلا تعارض هنالك، وهو يميز ما سكت عنه من
الأحكام، فاستنبطها الفقهاء بالقياس الشرعي.

إلاشتريت الشريعة نطقته به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقًا لما أدى
إليه البرهان فيه، أو مخالفًا، فإن كان موافقًا فالأول هنالك، وإن كان مخالفًا
طُلب هنالك تأويله.

(1) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29.
وعننى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُحَلَّ ذلك بعادة لسان العرب في النّجوز، من تسمية الشيء بشبهة، أو بشبهه، أو لاحقة، أو مقارنة، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدِّدت في تعريف أصناف الكلام المجاز.

وإذا كان الفقه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية، فكم بالحري أن يفعل ذلك صاحب علم البرهان؟ فإن الفقه إما عندقه قياس ظنى، والعرف عندقه قياس يقين.

ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهرة يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه القضية لا يشتبك فيها مسلم ولا يربية بها مؤمن، وما أعظم ازدياد القيقين بها عند من زال هذا المعنى وجبه، وقصد هذا المقدّص من الجمع بين المعقول والمنقول.

بل نقول: إنه ما من منطق له في الشرع، مخالف بظاهرة لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبار وتقصّحت سائر أجزائه، وجد في ألغاظ الشرع ما يشهد بظاهرة لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد. ولللهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألغاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل، واحتفاظ في المؤول منها من غير المؤول، فبالشعرى، مثل: يتأولون آية الاستواء (1)، وحديث النزول (2)، والحاكمة تحمل ذلك على ظاهره.

والسبب في ورود الشرع فيه الظاهرة والباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائنهم في التقدير، والسبب في ورود الظواهر المتعرضة فيه، هو تبنيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينهما، وإلى هذا المعنى وردت الإشارة بقوله تعالى: "فَالذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنْ مَعْلُومٍ مُّبِينٍ" إلى قوله: "وَالرَّاسِخُ في الْعِلمِ" (آل عمران: 7).

فقد قال قائل: إن في الشرع أشياء قد أجمع المسلمون على حملها على ظاهرها، وأشياء على تأويلها، وأشياء اختلفوا فيها، فهل يجوز أن يؤدي البرهان إلى تأويل ما أجمعوا على ظاهره؟ أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله؟

(1) آية: (ال الرحمن على الفرح الأعراء) (ط: 5)
(2) حديث: "بنزل ربا، تبارك وتعالى، كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلاث الليل الآخر، فقول من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ - رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

110
قلنا: أمًا لو ثبت الإجماع بطريقة يقيني لم يصح، وإن كان الإجماع فيها ظنيًّا فقط يصح. ولذلك قال أبو حامد (1) وأبو المعالي (2)، وغيرهما من أئمة النظر: إنه لا يُقطع بكفر من خرق الإجماع في التأويل في أمثال هذه الأشياء.

وقد يدل على أن الإجماع لا يقترب في النظريات بطريقة يقيني، كما يمكن أن يقترب في العمليات، أنه ليس يُمكن أن يقترب الإجماع في مسألة ما في عصر ما إلا بأن يكون ذلك العصر، عندنا محصورًا، وأن يكون جميع العلماء الموجودين في ذلك العصر معلومين عندنا. أعني معلومًا أشخاصهم، ومبلغ عددهم، وأن ينقل لنا في المسألة مذهب كل واحد منهم فيها نقل ثابت، ونقول، مع هذا كله، قد صح عندنا أن العلماء الموجودين في ذلك الزمان، متفقون على أنه ليس في الشروع ظاهر وباطن، وأن العلم بكل مسألة يجب أن يُكتَم عن أحد، وأن الناس طريقهم واحد في علم الشرعية.

وأما وكثير من الصدر الأول قد نقل عنهم أنهم كانوا يقولون أن للشرع ظاهرًا وباطنًا، وأنه ليس يجب أن يعلم بالباطن من ليس من أهل العلم به، ولا يقدر على فهمه، مثل ما روى عن البخاري عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال: حدثنا الناس بما يعرفون، أدررendon أن يكُذِب الله ورسوله؟! ومثل ما روى من ذلك عن جماعة من السلف.

فكيف يمكن أن يتصرف الإجماع متفق علينا عمارة من مسائل النظرية، ونحن نعلم قطعا أنه لا يخلو عصر من الأعصار من علماء يرون أن في الشرع أشياء لا ينبغي أن يعلم بتحقيقها جميع الناس؟

وذلك بخلاف ما عرض في العمليات، فإن الناس كلهم يرون إنشاءها لجميع الناس على سواء، ويكفّي في حصول الإجماع فيها بأن تنتشر المسألة، فلا ينقل لنا فيها خلاف، فإن هذا كافر في حصول الإجماع في العمليات، يخلاف الأمر في العلميات(3)....

***

(1) الغزالي
(2) الجويني (415/265هـ - 1025م)
(3) (فصل المقال) م 31-32
مبادئ الشرائع

أما الكلام في المعجزات، فليس فيها للقدماء من الفلسفة قول: لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب التعرض للفحص عنها، وتتعمل مسائل، فإنها مبادئ الشرائع، والتفاصيل عنها والمعشك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم. مثل من يفحص عن سائر مبادئ الشرائع العامة، مثل: هل الله تعالى موجود؟ وهل السعادة موجودة؟ وهل الفضائل موجودة؟ وأنه لا يُشك في وجودها، وأن كيفية وجودها هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية.

والعلة في ذلك، أن هذه هي مبادئ الأعمال التي يكون بها الإنسان فاضلاً ولا سبيل إلى حصول العلم إلا بعد حصول الفضيلة، فوجب أن لا يُتعرض للفحص عن المبادئ التي توجب الفضيلة قبل حصول الفضيلة، وإذا كانت الصناع العملية لا تتم إلا بأوضاع ومصادر يتسلمها العلم أولاً، فأُخرى أن يكون ذلك في الأمور العلمية.

والذي يجب أن يُقال فيها: إن مبادئها هي أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها؛ ولذلك لا تجد أحدًا من القدماء يتكلم في المعجزات، مع انتشارها وظهورها في العالم؛ لأنها مبادئ تثبيت الشرائع، والشرائع مبادئ الفضائل، ولا فيما يقال فيما بعد الموت.

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية، كان فاضلاً بإطلاق، فإن تمديبه الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين في العلم، فعرض له تأويل في مبدأ من مبادئها، فيجب عليه ألا يصبر بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى: "والرا子孙 في العلم يقولون آمنًا به".[آل عمران: 7]

هذه حدود الشرائع، وحدود العلماء.

(1) (تلاوات التهافت) ص 122، 121.
(2) المصدر السابق، ص 125، 124.
فالفصواب:

أن تعلم الفرقا من الجمهور التي ترى أن الشريعة مخالفلة للحكمة، أنها ليست مخالفلة لها.

وذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفلة لها، من الذين ينتميون للحكمة، أنها ليست مخالفلة لها، وذلك بأن يُعرف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة، أعني لا على كنه الشريعة ولا على كنه الحكم، وأن الرأي في الشريعة الذي اعتُقد أنه مخالف للحكمة هو رأى إما مُبتَدع في الشريعة، لا من أصلها، وإما رأى خطاً في الحكمة، أعني تأويل خطاً عليها.

إن أصول الشريعة إذا تأويلت وجدت أشد مطابقة للحكمة مما أول فيها، وذلك الرأى الذي ظن في الحكمة أنه مخالف للشريعة يُعرف أن السبب في ذلك أنه لم يحقق علمًا بالحكمة ولا بالشريعة، ولذلك اضطرنا إلى وضع قول (منهج الأدلة) - تعرف أصول الشريعة، وإلى وضع قول، أعني (فصل المقال في موافقة الحكم للشريعة) (1).

إن الحكمة هي صاحبة الشريعة، والأخت الراضية، وهما المصطحبان بالطبع، المتحامبان بالجوهر والغريزة (2).

---

(1) (مناهج الأدلة في عقائد السنة) ص 185. تحقيق: د. محمود قاسم طبعة القاهرة سنة 1955 م
(2) (فصل المقال) ص 26.
العقل - في لغة المسلمين - مصدر عقل يعقل عقلًا. وهو أيضًا: غريزة في الإنسان. فمساماه من باب الأعراض، لا من باب الجوهر القائمة بذلتها.

و عند المتفلسفة مسمى من النوع الثانيً.

وإنما يثبتته المتفلسفة من "العقل" بطل عند المسلمين، بل هو أعظم الكفر.

فإن "العقل الأول" عندهم مثير كل ما سوى الله، و"العقل الاعتراض" مثير ما تحت ذلك القمر، وهذا من أعظم الكفر عند المسلمين، واليهود، والنصرائي.

ومن أخص صفات العقل التي فارق بها الحس، أن الحس لا يعمل إلا معيّنًا.

والعقل يدرك كليًا مطلقًا، لكن بواسطة "المثالل". ثم العقل يدركها كلها مع عزوب الأمثلة المعيّنة عنه، لكن هي في الأصل إذا صارت في ذهنها كلية عامة بعد تصوره لأمثال معينة من أفرادها، وإذا بعد عبد الله بالمحوردة المعيّنة فقد يغلط كثيرًا بأن يجعل الحكم إما أعم وإما أخص، وهذا يعرض للناس كثيرًا.

وإن مبني العقل على صحة الفطرة وسائتمتها، ومنى السمع على تصديق الأنبياء - صلوات الله علیهم -...

والأنبياء - صلوات الله عليه - كفروا للناس الأوائل، فدلوهم على الأدلة العقلية التي بها تعلم المطالب الإلهية التي يمكنهم علمهم بها النظر والاستدلال، وأخبرهم مع ذلك من تفاصيل الغيب بما يعجرون عن معرفته بمجرد نظرهم واستدلالهم. وليس تعليم الأنبياء - صلوات الله عليه - مقصورًا على مجرد الخبر، كما يظنهم كثير من النظار، بل هم بينها من البرهان العقلية التي بها يعلم العلماء الإلهية ما لا يوجد عند هؤلاء - (المتفلسفة) - الليت. فتعليمهم - صلوات الله عليهم - جامع للأدلة العقلية والسمعية جميعًا، بخلاف الذين خالفهم، فإن تعليمهم غير

مفيد للأدلة العقلية والسمعية، مع ما في نفوسهم من الكبير الذي ما هم ببالغيه.

* * *
والقياس الصحيح هو من العدل الذي أنزله - (الله) - ولا يجوز قط أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسول وقياس صحيح - لا قياس شرعي ولا عقلي - ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخلاف الأدلة العقلية، وأن القياس الشرعي الذي روعيت شروط صحته يخلاف نصًا من النصوص، وليس في الشريعة شيء على خلاف القياس الصحيح، بل على خلاف القياس الفاسد. ومتى تعارض في ظن الظان الكتاب والميزان - النص والقياس الشرعي أو العقلي - فأن أحد الأمرين لازم: إما فساد دلالة ما احتج به من النص، إما لا يكون ثابتاً عن المعصوم، أو لا يكون إلا على ما ظنه، أو فساد دلالة ما احتج به من القياس - سواء كان شرعيًا أو عقليًا - ففساد بعض مقدمتهما أو كلها لما يقع في الأقية من الألفاظ المجملة المشتبهة.

وأبو حامد - (الغزالي) - ذكر في (القسطاس المستقيم) الموازين الخمسة، وهي منطق اليونان بعينه وعبارت.

ول لا يجوز لعاقل أن يظن أن الميزان العقلي الذي أنزله الله هو منطق اليونان، لوجوه:

أحداها: أن الله أنزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان من عهد نوح، وإنبراهيم، وموسى، وغيرهم. وهذا المنطق اليوناني وضعه أرسطو (322-284ق م).

قبل المسيح بثلاثمائة سنة. كيف كانت الأمام المتقدمة تزن بهذا؟

الثاني: أن أمتنا أهل الإسلام مازالوا يفتنون بالموازين العقلية ولم يسمع سلفنا بذكر هذا المنطق اليوناني وإنما ظهر في الإسلام لما عرّفت الكتب الرومية في دولة المأمون (180-218ه/832-863م) أو قريبًا منها.

الثالث: أنه مازال نظر المسلمين بعد أن عزّب عرفوه يعبدهونه ويذمونه، ولا يلتختون إليه ولا إلى أهل في موازينهم العقلية والشرعية.

* * *

وأكثر الطوائف على إثبات الحسن والقائم العقليين، لكن لا يثبتونه كما يثبت فئة من المعتزلة وغيرهم. بل القائلون بالتحسن والتقييم من أهل السنة والجماعة من السلف والخلف، كم يقول به من الطوائف الأربعة وغيرهم، يثبتون القدر والصفات ونحوهما بما يخالف فيه المعتزلة أهل السنة، ويقولون.
مع هذا بإثبات الحسن والقوّيق العقليين. وهذا قول الحنفي، ونقلوه أيضًا عن أبي حنيفة (80 - 150 هـ = 627 - 737 م) نفسه. وهو قول كثير من المالكية، والشافعية، والحنابلة، كأبي الحسن التيميمي (سنة 671 هـ)، وأبي الخطاب، وغيرهما من أئمة أصحاب أحمد بن حنبل (164 - 241 هـ = 790 - 840 م) - وكأبي على بن هريرة (345 هـ) وأبي بكر القفل الشاشي (سنة 365 هـ) وغيرهما من الشافعية. وكذلك من أصحاب مالك (93 - 179 هـ = 713 - 795 م)، وكذلك أهل الحديث، كأبي نصر السجزي (سنة 444 هـ)، وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني (سنة 671 هـ)، وغيرهما.

بل هؤلاء ذكروا أن نفّي ذلك هو من البدع التي حدثت في الإسلام في زمن أبي الحسن الأشعري (264 - 324 هـ = 876 - 936 م) لما نازع المعتزلة في الفطر بطرق الجهم بن صفوان (126 هـ = 745 م) ونحوه من أئمة الجهم، فاحتاج إلى هذا النفّي. وقالوا: وإلا فنفّي الحسن والقوّيق العقليين مطلقاً لم يقله أحد من سلف الأمّة ولا أئمتها. بل ما يؤخذ من كلام الأمّة والسلف في تعليق الأحكام، وبيان حكمة الله في خلقه وأمره، وبيان ما فيما أمر الله به من الحسن الذي يعلم بالعقل وما في مناهجه من القوّيق المعلوم بالعقل، ينافي قول النفّاة.

والنفّاة ليس لهم حجة في النفّى أصلاً، وقد استقصى أبو الحسن الأشéri (551 - 621 هـ) ما نكروه من الحجج، وبيّن أنّها عامّتها فاسدة.

وهم يسلمون أن كون الفعل صفة كمال أو صفة نقض، أو ملائمًا للفاعل أو منافرًا له، قد يعلم بالعقل، وهذه صفات للعقل، وهي قائمة بالموصوف.

ومن الناس من يظن أن الحسن والقوّيق صفة لازمة للموصوف، وأن معنى كون الحسن "صفة ذاتية له" هذا معناه، وليس الأمر كذلك، بل قد يكون الشيء حسنًا في حال قبيحًا في حال، كما يكون نافعًا محسوبًا في حال وضارًا وبغيضًا في حال، والحسن والقوّيق يرجع إلى هذا، وكذلك يكون حسنًا في حال وضيئًا في حال باعتبار تغيير الصفات.

وأيضاً، والنفّاة من أجل العباد يرجع إلى كون الأفعال نافعة لهم وضرورة لهم، وهذا مما لا يرب في فيه أنه يُعرف بالعقل، وللذين اختاروا الرازي (444 - 545 هـ = 1206 - 1305 م) في آخر أمره أن الحسن والقوّيق العقليين ثابتان في أفعال
العبادة. وأما إثبات ذلك في حق الله تعالى فهو مبني على معنى محبة الله ورضاه، وغضبه وسخطه، وفرحه بتوية الناس، ونحو ذلك.

وقوله: «وأما العقل فأحرص على صفات العقل عند الإنسان أن يعلم الإنسان ما ينفعه ويفعله، وعلم ما يضره ويتركه، والمراد بالحسن هو النافع، والمراد بالقبيح هو الضار. فكيف يقال إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح؟ وهل أعظم تفاصل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟ دل وجهن الناس ميال إلى من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عن يتصف بالقبيح. فذلك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه.»

فإن العقل يحب الحق ويلطذ به، ويحب الجميل ويلطذ به، وإن محبة الحمد والشكر والكرم هما من العقلات. وإن للإنسان قوتين: قوة علمية فهي تحب الحق، وقوة عملية فهي تحب الجميل، والجميل هو الحسن والقبيح، ضده. (1)

* * *

فالقول كلهما كان أقدس في الشرع كان أقدس في العقل. فإن الحق لا يتناقض، والرسول إنما أخبر بحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسول يبعث بتكمل الفطرة لا تتغير الفطرة. قال الله تعالى: {سُبْبِمُ بِآياتِنَا فِي الأَفْقَاقِ} [فصص: 32] فأخبر أنه سببهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة: لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق فنطلب الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصدق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول. (2)

* * *

ما عليه سلف الأمة أهل العلم والإيمان أن الله سبحانه وتعالى بعين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم ما لا يُقَدِّر أحد من هؤلاء - (المتكلمين والمتفقهين) - قدره، ونهاية ما يذكرون جاء القرآن بخلاصة على أحسن وجه، وذلك كالأمثال المشروعة التي يذكرها الله في كتابه الذي قال فيها: وقَدْ ضَرْنَا (3)

---

(1) ابن تيمية (كتاب الرد على المنطقيين) ص 196، 317، 324، 325، 326، 327، 366، 374، 420، 434، 432، 433، 439
(2) ابن تيمية (منهج السنة النبوية) ج 1 ص 82 طبعة القاهرة 1321هـ.
للفس في هذا القرآن من كل مثل [الروم: 58] فإن الأمثال المشروبة هي الأقية العقلية. سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل، ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين، وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات الإقينية.

وإذا قيل: تعارض بلالان، سواء كاناً سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، فالواجب أن يقال: لا يخول إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما، سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً، وهذا متفق عليه بين العقلاء: لأن الدليل القطعي هو الذي يجب تثوتن مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطنة، وحينئذ يلزم تعارض بلالان قطعياً واحدهما يتناقض مدلول الآخر، للزم الجمع بين النقيضين، وهو محال، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو لا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمنع تعارض الدلائل.

وإن كان أحد الدلائل المتعارضين قطعياً دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإن النزن لا يدفع النقيض، وأما إن كانا جميعاً ظنيين، فإنه ينص على طلب ترجيح أحدهما، فأيهم ترجح كان هو المقدم، سواء كان سمعياً أو عقلياً.

ولا جواب عن هذا إلا أن يقال: الدليل السمعي لا يكون قطعياً، وحينئذ فيقال هذا مع كونه باطلاً فإنه لا ينفع، فإن عليه هذا التقدير يجب تقديم القطعي لكونه قطعياً، لا لكونه عقلياً ولا لكونه أصلاً للسمع...

وكلما قام عليه دليل قطعي سمعي يمنع أن يعارضه قطعي عقلي...

إن إثبات التعارض بين الدلائل العقلي والسمعي، والجزم بتقديم العقلي معلوم الفضاد بالضرورة، وهو خلاف ما اتفق عليه العقلاء، وحينئذ فنقول الجواب من وجهه:

(أحدنا): أن قوله إذا تعارض التقول والعقل، إذا أن يزيد به القطعيين، فلا نسلم إمكان التعارض حينئذ، وأما أن يزيد به الظنيين، فالنقد هو الرافع مطلقًا، وإما
أن يريد به ما أحدثهما قطعي، فالقطعي هو المقدم مطلقًا، وإذا قدر أن العقل هو القطعي كان تقديمه لكونه قطعيًا لا لكونه عقليًا، ففعل أن تقديم العقل مطلقًا خطأ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقليًا خطأ.

(الوجه الثاني): أن يقال: لا نسلم انحصر القسمة فيما ذكرته من الأقسام الأربعة: إذ إن الممكن أن يقال: يُقدم العقل تارة والسمعي أخرى، فأبيهما كان قطعيًا قدًم، وإن كانا جميعًا قطعيين فيمنعون التعارض، وإن كانا طبيعان فالراجح هو المقدم. فدعوا المدعى أنه لم أبد من تقديم العقل مطلقًا أو السمعي مطلقًا أو الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين دعوى باطلة، بل هذا نقص ليس من هذه الأقسام، كما ذكرنااه، بل هو الحق الذي لا ريب فيه.

(الوجه الثالث): قوله: إن قدمنا النقل كان ذلك طعنًا في أصله، الذي هو العقل، فتكون طعنًا فيه، غير مسلم، وذلك لأن قوله: إن العقل أصل النقل إما أن يريد به أنه أصل في ثبوتته في نفس الأمر، أو أصل في علمنا بصحته، والأول لا يقوله عاقل، فإن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره هو ثابت، سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوتته أو لم نعلم ثبوتته لا يعمل ولا يعبره: إذ عدم الدليل ليس علمًا بالعدم، ونعلم علمنا بالحقائق لا ينفي در.parseInt("مكتوبات.png"), ACTIONS.2, 0) - هو ثابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقته أو لم نعلم، ومن أرسله الله تعالى إلى الناس فهو رسوله، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموه، وما أخبر به فهو حق وإن لم يصدق الناس، وما أمر به عن الله فإنه أمر به وإن لم يطيع الناس، فثبت الرسالة في نفسها وثبت صدق الرسول وثبت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفًا على عقولنا أو على الأدلة التي تعلمها بعقلونا، وهذا كما أن وجود الرسول تعالى وما يستحقه من الأسماء والصفات ثابت في نفس الأمر سواء علمناه أو لم نعلمه، فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبت الشرع في نفسه، ولا مطيعًا له صفة لم تكن له، ولا معيدًا له صفة كمال؛ إذ العلم مطابق للمعلوم المستغنى عن العلم، فإن العلم نوعان: أحدهما العملي، وهو ما كان شرطًا في حصول المعلوم، كتصور أحدثنا لما يريد أن يفعله، فالعلوم هذا متوفر على العلم به، يحتاج إليه.
والثاني: الخبرى النظرى، وهو ما كان المعلوم غير مقتصر في وجوده إلى
العلم به، كعلمنا بوحدانية الله تعالى وأسمائه وصفاته وصدق رسوله وملائكته
وكتبه وغير ذلك، فإن هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نتعلمها، فهي
مستعفية عن علمنا بها. والشرع مع العقل هو من هذا الباب، فإن الشرع المنزلي
من عند الله ثابت في نفسه، سواء علمناه بعقلنا أو لم نتعلم، وهو مستغن
من نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نتعلم به، فإن
العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به وبما تضمنه من الأمور
التي يحتاج إليها في ديناه وأ أحتره، وانتفع بعلمهم، وأعطاه ذلك صفه لم تكن له
قبل ذلك، ولو لم يعلم كون جاهزاً ناقصًا.

وأما إذا أراد أن العقل أصل في معرفتنا بالسمع، ودليل لنا على صحته، وهذا
هو الذي أراده، فيقال له: أتعلن بالعقل هذا الغريزة التي فيها أم العلوم التي
استفدناها بتلك الغريزة؟

أما الأول: فلم ترد، ويمتمن أن تزيد، لأن تلك الغريزة ليست علمًا يتصور أن
تعارض النقل، وهي شرط في كل علم عقلي أو معمي، فالحياة، وما كان شرطاً
في الشيء امتنع أن يكون منافياً له، فالحياة والغريزة شرط في كل العلم
سمعيها وعقلية فامتنع أن تكون منافية لها، وهي أيضًا شرط في الاعتقاد
الحاصل بالاستدلال، وإن لم يكن علمًا، فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له.

وإن أردت بالعقل الذي هو دليل السمع وأصله المعرفة الحاكمة بالعقل،
فيقال لك: من العلوم أنه ليس كل ما يُعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلًا
على صحته. فإن المعرفة العقلية أكثر من أن تحصر، والعلم بصحة السمع غاية
أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول - ص - بل ذلك يعلم به أن
الله تعالى أرسله، مثل إثبات الصانع وتصديقه للرسول بالآيات وأمثال ذلك. وإذا
كان كذلك لم يكن جميع المعقولات أصلاً للعقل، لا يمنعها توقف العلم بالسمع
عليها، ولا يمكن الدلالة على صحته، ولا يغير ذلك، لاسيما عند كثير من متكلمة
الإثبات أو أكثرهم، كالأشعري في أحد قوليه، وكثير من أصحابه أو أكثرهم،
كالأستاذ أبى المعالي الجوهري (419 - 480 هـ = 1025 - 1085 م) ومن بعده
ومن وافقهم، الذين يقولون العلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التي تجري
مجرى تصديق الرسول علم ضروري، فحينئذ ما يتوقف عليه العلم بصدق الرسول من العلم العقلي سهل يسير، مع أن العلم بصدق الرسول له طرق كثيرة متنوعة.

و حينئذ إذا كان المعارض للسمع من المعقولات ما لا يتوقف العلم بصحة السمع عليه لم يكن القدح فيه قدحًا في أصل السمع، وهذا ببين واضح، وليس القدح في بعض العقليات قدحًا في جميعها، كما أنه ليس القدح في بعض السمعيات قدحًا في جميعها، ولا يلزم من صحة بعض العقليات صحة جميعها، و حينئذ فلا يلزم من صحة المعقولات التي هي ملزمة للسمع صحة المعقولات المناقضات للسمع، فإن ما به علم السمع لا يعلم السمع إلا به لازم للعلم بالسمع، لا يوجد العلم بالسمع بدونه وهو ملزم له، والعلم به يستلزم العلم بالسمع، والمعارض للسمع المناقض له مناف.

له، فهل يقبل عاقل إذا يلزم من ثبوت ملزم الشيء ثبوت مناقضته ومعارضته؟

ولكن صاحب هذا القول جعل العقليات كلها نوعًا واحدًا مثاليًا في الصحة أو الفساد، ومعلوم أن السمع إذا نما يتطلبد صحة بعضها الملازم له، لا صحة البعض المناقض له، والناس متمنون على أن ما يسمى عقليات منه حق ومنه باطل، وما كان شرطًا في العلم بالسمع وموجبًا له فهو لازم للعلم به، بخلاف المناقض للسمع، فإنه يمنع أن يكون هو بعينه شرطًا في صحته ملزمًا لثبوت، فإن الملازم لا يكون مناقضًا، فثبت أنه لا يلزم من تقديم السمع على ما يقال إنه ملزم في الجملة القدح في أصله.

فقد تبين بهذه الوجه الثلاثة فساد المقدمات الثلاث التي بنوا عليها تقدم آرائهم على كلام الله ورسوله.

فإن قيل: نحن إنما نقدم على السمع المعقولات التي علمنا بها صحة السمع.

قيل: إننا سنبين - إن شاء الله - أنه ليس فيما يعارض السمع شيء من المعقولات التي يوقف السمع عليها، فإذا كل ما عارض السمع مما يسمى معقولاً ليس أصلاً للسمع يوقف العلم بصحة السمع عليه، فلا يكون القدح في شيء من المعقولات قدحًا في أصل السمع.
(الوجه الثاني): إن جمهور الخلق يعترفون بأن المعروفة بالصانع وصدق الرسول ليس متوقفًا على ما يدعية بعضهم من العقلية المختلفة للسمع، والواضعون. لهذا القانون، كأبي حامد (450 – 550 هـ = 1050 – 1151 م) والرازي وغيرهما معترفون بأنه العلم بصدق الرسول لا يتوقف على العقلية المعارضة له، فطوارئ كثيرون، كأبي حامد، والشافعي، وابن كثير (429 – 548 هـ) وأبي القاسم الراغب (502 هـ = 1107 م) وغيرهم يقولون: العلم بالصانع قد يحصل بالاضطرار، وحينئذ فالعلم يكون الصانع قادرًا معلوم بالاضطرار، والعلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التي يتحدى الخلق بمعارضتها وعجزوا عن ذلك معلوم بالاضطرار، ومعلوم أن السمعيات ملؤها من إثبات الصانع وقدره وتصديق رسوله، ليس فيها ما ينافض هذه الأصول العقلية التي بها يعلم السمع، بل الذي في السمع يوافق هذه الأصول، بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على إثبات الصانع ودلائل روبيةه وقدرته وبيان آيات الرسول ودلائل صدقه أضعف ما يوجد في كلام الناظر، فليس فيه والله الحمد ما ينافض الأدلة العقلية التي بها يعلم صدق الرسول، ومن جعل العلم بالصانع نظرًا يعترف أكثرهم بأن من الطرق النظرية التي بها يعلم صدق الرسول لا ينافض شيئًا من السمعيات.

إن كل من أثبت ما أثبته الرسول ونفى ما نفعه كان أولئك بالمعقول الصحيح، كما كان أولئك بالمنقول الصحيح، وإن من خالف صحيح المنقول فقد خالف أيضًا صريح المعلوم، وكان أولئك بمن قال الله فيه: {وقالوا لَوْ كُنْتُمْ نَسُمَعَ أو نَتَلَكَمُ مَا كُنْتُمْ}.

[الملك: 10].

إن الرسول أهال الناس في معرفة الله على العقل.

إن الأدلة العقلية الصحيحة البيئة التي لا يذهب فيها، بل العلوم القطرية الضرورية توافق ما أخبر به الرسول، لا تخلفه، وإن الأدلة العقلية الصحيحة جميعها موافقة للسمع، لا تختلف شيئًا من السمع، وهذا والله الحمد قد اعتبرته فيما ذكره عامة الطوائف، فوجدت كل طائفة من طوائف النظر أهل العقليات لا يذكر أحد منهم في مسألة دليلًا صحيحة يخالف ما أخبر به الرسول، بل يوافقه، حتى الفلاسفة القائلون بقدم العالم، كأرسطو وأتباعه، ما يذكرونه من دليل.
 الصحيح عقلًا فإنّه لا يخالف ما أخبرت به الرسول، بل يوافقه، وكذلك سائر طوائف
النظر من أهل النفي والاقتباس لا يذكرون دليلًا عقليًا في مسألة إلا والصحيح منه
موافقة لا مخالف، وهذا يعلم به أن المعقول الصريح ليس مخالفاً لأخبار الأنباء.
ومن خالف الأنباء ليس لهم عقل ولا اسم معه كما أخبر الله عهبره بقوله تعالى:
"أيما ألقين فيهم غايةًا أو شيءًا فذوقتهما ألم بأنكم تذرون فذكروا فلا تزل
الله من شيء إن أنت أم الأثر في عدال كبير 19 وقال الله أو كنا نذكر أو نعقل ما كنا في أصحاب
السعودي، فأهتمروا بذلك فسحقنا لأصحاب السوء" [الملك: 8 - 11].

فإن قالوا لا يتصرور أن يعلم أنه أخبر بما ينافي العقل، فإنه منزه عن ذلك،
وهو ممتنع عليه.

قيل لهم: فهذا إقرار منكم بامتناع معارضة الدليل العقلي للسمع:
فإن قالوا: إنما أردنا معارضة ما يظن أنه دليل وليس بدليل أصلًا، أو يكون
دليلًا ظنيًا لترفق الظن إلى بعض مقدماته، إما في الإسناد وإما في المتن،
كماكان كذب المخبر أو غلطه، وكما كان احتمال اللفظ لمعنين فقاعة.
قيل: إذا فسرتم الدليل السمعي بما ليس بدليل في نفس الأمر، بل اعتقاد
دلالته جهل، أو بما يظن أنه دليل وليس بدليل، أمكن أن يفسر الدليل العقلي
المعارض للشرع بما ليس بدليل في نفس الأمر، بل اعتقاد دلالته جهل، أو بما
يظن أنه دليل وليس بدليل، وحينئذ فمثل هذا وإن سماه أصحابه براهين عقلية
أوقاطع عقلية وهو ليس بدليل في نفس الأمر، أو دلالته ظنية، إذا عارض ماهو
دليل سمعي يستحق أن يسمى دليلًا لصحة مقدمته وكونها معلومة، ووجب تقديم
الدليل السمعي عليه بالضرورة واتفاق العقلاء.

فقد تبين أنهم بأى شيء فسروا جنس الدليل الذي رجحوه أمكن تفسير الجنس
الآخر بنظيره، وتروجنه كما رجحوه، وهذا لأنهم وضعوا وضعًا فاسدًا، حيث
قدموا ما لا يستطيع التقدم لا عقلًا ولا سمعًا، وتبين بذلك أن تقديم الجنس على
الجنس باطل، بل الواجب أن ينظر في عين الدليلين المتعارضين، فقدم ما هو
قطعى منهما، والراجح إن كانا ظنيين سواء كان هو السمعي أو العقلي، وتبين أن
الحزم بتقديم العقل مطلقة خطاً وضلال...
لا يعلم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء، ووجد في عقله ما يننازع فيه خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم منه، وألا يقم رأيه على قوله، ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن النزاع الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من النزاع الذي بين العامة وأهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب عليه أن ينافذ لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات من الأذنية والأنشطة والاضمدي والمسلمات واستعمالها على وجه مخصوص، مع ما في ذلك من الكلفة والألم، لطنه أن هذا أعلم بهذا من، وأنه إذا صدقته كان ذلك أقرب إلى حصول الشفاء، مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يشعرون بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سببًا في هلاكه، ومع هذا يقبل قوله ويبلده، وإن كان ظنه واجتهاده يختلف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم السلام والتسليم - والرسول صادقون مصداقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وإن الذين يعارضون أقوالهم بقولهم عندهم من الجهل والضلالة ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطأ قط بما لم يصب في معارضة له قط؟

إن كون الشيء معلومًا بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لأزمة

الشيء من الأشياء، بل هو من الأمور النسبية الإضافية، فإن زيد قد يعلم بعقله ما لا يعلم به، وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر، والمسائل التي يقال قد تعارض فيها العقل والشرع جميعها مما أضطرب فيها العقلاء ولم يتفقوا فيها على أن موجب العقل كذا، بل كل من العقلاء يقول إن العقل أثبت أو أوجب أو شرع ما يقول الآخر إن العقل نفاه أو أكراه أو منع منه، بل آل الأمر بينهم إلى التنازع فيما يقولون إنه من العلوم الضرورية، فقوله هذا نحن نعلم بالضرورة العقلية ما يقول الآخر إنه غير معلوم بالضرورة العقلية، كما يقول أكثر العقلاء نحن نعلم بالضرورة العقلية امتناع رؤية مرن من غير معانية ومقابلة، ويقول طائفة من العقلاء إن ذلك ممكن، ويقول أكثر العقلاء إذا نعلم أن حدوث حادث بلا سبب حادث ممتنع، ويقول طائفة من العقلاء إن ذلك ممكن، ويقول أكثر العقلاء إن كون الموصوف عالمًا بلا علم قادرًا بلا قدرة شيئًا بلا حياة ممتنع في ضرورة العقل، وأخرون ينازعون في ذلك، ويقول أكثر العقلاء
إن كون الشيء الواحد أمرًا نهيًا خبرًا ممتنع في ضرورة العقل، وأخرون ينزاون
في ذلك، ويقول أكثر العقلاء إن كون العقل والعاقل والمعقل والعشق والعاشق
والمعشرق والوجود والوجود والعذاب والعذبة أمرًا واحدًا هو ممتنع في ضرورة العقل،
وأخرون ينزاون في ذلك، ويقول جمهور العقلاء إن الوجود ينقسم إلى واجب
وتمكن وقدم ومحدد، وإن لفظ الوجود يعمها ويتنموها، وإن هذا معلوم بصورة
العقل، ومن الناس من ينزاون في ذلك، وجمهور العقلاء يقولون إثبات موجودين
ليس أحدهما مباينًا للآخر ولا داخلاً فيه، أو إثبات موجود ليس يدخل العالم ولا
خارجه، معلوم الفساد بصورة العقل، ومن الناس من ينزاون في ذلك، وهذا باب
واسع، فلا قيل بتقديم العقل على الشرع، وليست العقول شيئًا واحدًا بيئاً بنفسه
ولا عليه دليل معلوم للناس، بل فيها هذا الاختلاف والاضطراب، لجود أن يحال
الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوتته ومعرفته ولا اتفاق للناس على نظره، وأما الشرع
فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لأزمة له لا تختلف باختلاف أحوال
الناس، والعلم بذلك ممكن، ورد الناس إليه ممكن، ولهذا جاء التنزل برث الناس
عند التنزاعة إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: "وأما أهل الدين أمروا أطغوا الله وأطغوا
الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردو إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله
والرسول الآخر كذلك خبر وأحسن تأويلًا" [ النساء: 9 ] فأمر الله المؤمنين عند التنزاعة بالرد
إلى الله والرسول، وهذا يوجب تقديم السمع، وهذا هو الواجب، إذ لو ردوا إلى غير ذلك
من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافًا
واضطرابًا وشكًا وارتباكًا، وللذا قال الله تعالى: "كان الناس أمة واحدة قبئ الله النبّي
عيسٍ وبرائتهم وأنزل معهم الكتاب بالحق ليعملوا بين الناس فيما اختلفوا فيه" [ البقرة: 213 ]
فالنزل الله الكتاب حاكمًا بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ لا يمكن الحكم بين الناس
في موارد التنزاعة والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء.
ولا ريب أن بعض الناس قد يعلم بعقله ما لا يعلم نعبره غيره، وإن لم يكنه بيان
ذلك لغيره، ولكن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع أبدًا، بل
المنقول الصحيح لا يعارض معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما
تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيح الصريحة شبهات
فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم ثبوت نقيضها الموافق للشرع، وهذا تأملته
في المسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنيوات
ومعاد وغيرها. ووجدت ما يُعلَم بصريحة العقل لم يخالفه سمع قط. بل السمع
الذي يقال إنه يخالف إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة، فلان يصبح أن يكون
دليلاً لتجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالف صريحة العقول. ولا
يعلم حديث واحد يخالف العقل أو السمع الصحيح إلا وهو عند أهل العلم ضعيف،
بل موضوع. ونحن نعلم أن الرسول لا يخبِرون بمحالات العقول بل بمجازاة
العقل، فلا يخبرون بما يعلم انتفاذه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته.

ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشتبهة التي يجار
فيها كثير من العقول، كمسائل أسماء الله وصفاته وأفعاله وما بعد الموت من
الثواب والعقاب والجن والطوف والنار والرحام والكرسي، وعامة ذلك من أئمة الغيب التي
تقصر عقول أكثر العقول عن تحقيق معرفتها بمجرد رأيهم، ولذا كان عامة
الخائنين فيها بمجرد رأيهم إما متنازعين مختلفين وإما حياءاً متهورين -
(مضطربين) - وغالبهم يرى أن إمامه أحذق في ذلك منه، وهذا تجدهم عند
التحقيق مقلدين لأنهم بلفهم فيما يقولون من العقوبات المعلومة بصريحة العقل... بل
هذا موجود في أتباع أئمة الفقهاء وأئمة شيووخ العادة كأصحاب أبي حنيفة
والشافعي (150 - 162 هـ) / 770 - 782 م، وذلك وأحمد وغيرهم، تجد أحدهم
دائماً يجد في كلامهم مايراه هو باطل، وهو يتوقف في رد ذلك لاعتقاده أن
إمامه أكمل منه عقلاً وعلماً، ولا تجد أحداً من هؤلاء يقول إذا تعارض قوله وقول
منبراه قد كتبه مطلقاً، ولكن إذا تبين له أحياناً الحق في نقيض قول مبكره
وأن نقيضه أرجح منه قد كتبه لا اعتقاده أن الخطأ جائز عليه، فكيف يجوز أن يقال
إن في كتاب الله ورسوله الصحيحه الباقية عنه ما يعلم زيد وعمرو بعقله أنه
باطل، وأن يكون كل من اشتته عليه شيء مما أخبر به النبي ﷺ قدم رأيه على
نفس الرسول ﷺ في أئمة الغيب الذي ضل فيها عامة من دخل فيها بمجرد رأيه
ب دون الاستهداف بهدئ الله والاستضاءة بئور الله الذي أرسل به رسوله وأنزل به
كتبه، مع علم كل أحد بقصوره وتقصيره في هذا الباب، وما وقع فيه من
أصحابه وغير أصحابه من الاضطراب.

ففِقِيَ الجملة. النصوص الباقية في الكتاب والسنة لا يعارضها معقول قط، ولا
يعارضها إلا ما فيه استتباه واضطراب. وما علم أنه حق لا يعارضه ما فيه
اضطراب وإشتباه لم يعلم أنه حق.
بل نقول قولاً عاماً كلياً: إن النصوص الثابتة عن الرسول ﷺ لم يعارضها قط صريح معقول فضلاً عن أن يكون مقدماً عليها، وإنما الذي يعارضها شبه وخيالات مبناة على معان متشابهة وألفاظ مجملة، فمثلي وقع الاستفسار والبيان ظهر أن ما عارضها شبه سوفيسطانية لأبراهيم عقيلة.

والقول بتقديم الإنسان لمعقوله على النصوص النبوية قول لا يضبط.

وذلك لأن أهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات، كل منهم يقول إنه يعلم بضرورة العقل أو نظره نقضه، وهذا - من حيث الجملة - معلوم، فالمعترضة ومن اتباعهم من الشيعة يقولون إن أصلهم المتضمن نقي الصفات والتكذيب بالقدر الذي يسمونه التوحد والعدل، معلوم بالأدلة القطعية العقلية، بل الطائفة ومن ضاعهما يقولون إن الكلام المحض هو ما أمكن علمه بالعقل المجرد بدون السمع كمسألة الروح والكلام وخلق الأفعال، وهذا هو الذي يجعلهم قطعيًا ويوثون المخالف فيه، وكل من طائفة النقفي والإثبات فيهم من الذكاء والعقل والمعرفة مأهم متميزون به على كثير من الناس، وهذا يقول إن العقل الصريح دل على النقفي، والأخر يقول العقل الصريح دل على الإثبات، وهما متنازعون في المسائل التي دلت عليها النصوص، كمسائل الصفات والقدر، وأما المسائل المولدة كمسألة الجوهر الفرد وتماثل الأجسام وわけではない الأعراض وغير ذلك، ففيها من النزاع بينهم ما يطول استقصاؤه، وكل من يقول فيها القطع العقلي، ثم كل من كان عن السنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في مقولاتهم أعظم، فالمعترضة أشد اختلافًا من متكلمة أهل الإثبات، وبين البصريين والبغداديين منهم من النزاع ما يطول ذكره، وبشريئين أقرب إلى السنة والإثبات من البغداديين، وللهذا كان البصريين يثبتون كون البارى سريعًا بصيرًا مع كونه حيًا عليهما قديرًا، ويثبتون له الإزاحة، ولا يوجبون الأصلح في الدنيا، ويثبتون خبر الواحد والقياس، ولا يثبتون المبتدئين، وغير ذلك.

ثم بين المشابيعية والحسينية أتباع أبي الحسين البصري (ت.768 هـ /987 م) من التنازع ماهو معروف.

وأما الشيعة فأعظم تفرقًا واختلافًا من المعترضة، لكونهم أبعد عن السنة منهم، حتى قول إنهم يبلغون اثنتين وسبعين فرقة.
وأما الفلاسفة فلا يجمعهم جامع، بل هم أعظم اختلافًا من جميع طوائف المسلمين واليهود والمسيحيين والمهرمون، فنذكر فيما ذهب إليها القارابي (260 هـ - 880 م) وابن سينا (270 هـ - 428 هـ) وابن سينا (907 هـ - 1037 م) إثنا هم فلسفتين المشايخان أتباع أرسطو صاحب التعاليم، وبينه وبين سلفه من النزاع والاستثناء ما يطول وصفه.

وأما سائر طوائف الفلاسفة فلم حاكي اختلافهم في علم الهيئة وحده لكان أعظم من اختلاف كل طائفة من طوائف أهل القبلة، والهيئة علم رياضي حسابي هو من أصح علومهم، فإذا كان هذا اختلافهم في فلسفتهم باختلافهم في الطبيعتين أو المقاطع، فكنف بالله إلهيات، واعتبر هذا بما ذكره أرباب المقاطع عنهم في العلم الدينية والطبيعة، كما نقله الأشعرى في كتابه في مقالات غير المسلمين، وما جرى القاضي أبو بكر - (أبي الديني 487 هـ) - وعنهم في كتابه في الدقائق، فإن في ذلك من الخلاف عليهم أضعاف أضعاف من ذكره الشهر ستانئي وأنماثه ممن يحكي مقالاتهم، فكلامهم في العلم الدينية الذي هو أصح علمهم العقلية، قد اختلافوا فيه اختلافًا لا يكاد يحسى، ونفس الكتب الذي أتفق عليه جمهورهم، وهو كتاب المجسطي، لبطليموس (90 - 168 م)، فيه قضايا كثيره لا يقمع عليها دليل صحيح، وفيه قضايا يناظره غيره فيها، وفيه قضايا مبنية على أرصاد منقوطة عن غيره تقبل الغلط والكذب، وكذلك كلامهم في الطبيعتين في الجسم، وهل هو مركب من المادة والصورة أو الأجزاء التي لا تنقسم؟ أو ليس بمركب لأمن هذا ولا من هذا؟ اكتثير من حذار النظر حار في هذه المسائل حتى أثنياء الطوائف كأبي الحسن البصري، وأبي المعاني الجوزي، وابن عبد الله الخطيب (170 - 787 هـ) (1310 - 1379 م)، حاروا في مسألة الجهاز القبر، فتوافقوا فيها تارة وإن كانوا قد يجزمون بها أخرى، فإن الواحد من هؤلاء تارة يجزم بالقوليين المتناقضين في كتابين أو كتاب واحد، ونارة يحار فيها، مع دعواهم أن القول الذي يقولونه قطعي برهان عقلي لا يحتمل التقييد.

وهو كثير في مسائل الهيئة ونحوها من الرياضيات، وفي أحكام الجسم وغيره من الطبيعتين، فما الظن بالعلم الإلهي، وأساطين الفيلسوفة يزعمون أنهم لا يصلون فيه إلى اليقين وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأحرى والأخير، وأكثر
الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة بل وبالتصرف الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول تجدهم في حياء، كما أنشد الشهريستاني في أول كتابه لما قال: قد أشار إلى من إشارته غًنم، وطاعته حتم، أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول، ولعله استحسن ذا ورم، ونفق في غير ضرر – [حتبل]

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسَّرت طرقي بين تلك المعمى على نذر أن أوضعًا كنت حائث
فلما أرا إنا واصفاً سين تأدم وأنشد أبو عبد الله الرازي (1185 هـ/581 م) في غير موضع من كتابه - مثل كتاب (أقسام اللذات) - لَا ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم، وأنه ثلاث مقامات، العلم بالذات، والصفات، والأفعال، وعلى كل مقام عقدة، فعلم الذات عليه عقيدة: هل الوجود هو الماهية؟ أو زائد على الماهية؟ وعلم الصفات عليه عقيدة: هل الصفات زائدة على الذات؟ أم لا؟ وعلم الأفعال عليه عقيدة: هل الفعل مقارن للذات، أو متأخر عنها؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو داق هذا الشراب؟، ثم أنشد:

لا أكثر سعى العالمين ضلال وحاصلاً دنيانا أني ويلال وموت نستعن من بحثنا طول عمرنا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليًا ولا تروى غليظًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: "الرَّحْمَنَ عَلَى

الغُرُظَةَ الْإِسْتِرَىَّ" [طه: 5].

"إِلَيْهِ يُصَعَّدُ الْكَلَامُ الْطَّبِيبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ بَرَفَعُهُ" [ناصر: 10] وأقرأ في التفريدة: "لى


وكان ابن أبي الحديد (586-1150 هـ - 1167-1257 م) من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسة، وله أشعار في هذا الباب، كقوله:
فيك يا أغلب طاقة الفكر
سافرت فيك العقول فما
فلحى الله الألما زعموا
كذبوا، إن الذي ذكرتوا
هذا مع إنشاده:

الذي بها قد كتب لم نحيه
وما بقيت إلا رضاد وقربيه
سيكرم مثواه ويعزب شربه
إذا كان من بهوى عليه يصبه

و هذا تعد أبا حمد الغزالي (450 - 505 / 1058 - 1111 م) مع فرط ذكائه وتأليفه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكيه طريق الهدوء والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف، ويحل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، ومات وهو يستغل في صحيح البخاري...

١٣٠

١٣٠

١٣٠

١٣٠

١٣٠
بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في المعقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تنطيل باعتقاد يغير فطرتها ولا هو، فامتتنع حينئذ أن يعتمد على ما يعارض الكتاب من الأقوال التي يسمونها معقولات وإن كان ذلك قد قالته طائفة كبيرة لمخالفه طائفة كبيرة لها، ولم يبق إلا أن يقال إن كل إنسان له عقل فيعمد على عقل نفسه، وما وجد معارضًا لأقوال الرسول محمد ﷺ من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومعلوم أن هذا أكثر ضلالاً واضطرابًا.

فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية، وهم ليتهم ونهورهم يكحرون في معرفة هذه العقليات، لم ينصلوا فيها إلى معقول صريح يتناقض الكتاب، بل إنما إلى حيرة وارتباك، وإلا إلى اختلاف بين الأحزاب، كيفك في هواء من لم يبلغ مبلغهم في الذين والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟! هذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يتناقضه لم يعترضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب.

إذا تعارض العقل والنقل، وجه تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين التقيضين، ورفعهما رفع للتقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجود قبول ما أخبر به الرسول محمد ﷺ، فلو أبطلنا النقل كنا قد أبطلنا دلالة العقل، وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصح أن يكون معارضًا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصح لمعرفة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجبة عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه، وهذا بين واضح، فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون هذه الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن يكون العقل دلالي صحيحاً، وإذا لم يكن دللياً صحيحاً لم يجوز أن يتبعت بحال، فضلًا عن أن يعتمد، فصار تقديم العقل على النقل قديماً في العقل بانتفاء لوازمه ومدلوله، وإذا كان تقديمه على النقل يستلزم القدح فيه، والقدح فيه يمنع دلاليته، والقدح في دلاليته يقيد في معارضته، كان تقديمه عند المعارضة مبطلة لل المعارضة، فامتتنع تقديمه على النقل، وهو المطلوب.

وأما تقديم النقل عليه، فلا يستلزم فساد النقل في نفسه، وما يوضح هذا أن يقال: معارضة العقل لما دل العقل على أنه حق دليلاً على تناقض دلاليته، وذلك

١٣١
بوجب فساده، وأما السمع فلم يعلم فساده دلالته ولا تعارضها في نفسه فإن
لم يعلم صحتها، وإذا تعارض دليلان أحدهما علمًا فساده والآخر لم يعلم فساده,
كان تقدير ما لم يعلم فساده أقرب إلى الصواب من تقدير ما يعلم فساده,
كالشاهد الذي علم أنه يصدق ويكتب والشاهد المجهول الذي لم يعلم كذبه، فإن
تقدير قول الفاسق المعلوم كذبه على قول المجهول الذي لم يعلم كذبه لا يجعل,
كيف إذا كان الشاهد هو الذي شهد بأنه كذب في بعض شهادته؟
والعقل إذا صدق السمع في كل ما يخبر به، ثم قال إنه أخبر بخلاف الحق،
كان هو قد شهد للسمع بأنه يجب قبوله، وشهد له بأنه لا يجب قبوله، وشهد بأن
الأدلة السمعية حق، وأن ما أخبر به السمع فهو حق، وشهد بأن ما أخبر به السمع
فليس بحق، فكان قدحًا في شهادته مطلقًا وتزكية، فلا يجب قبول شهادته
الأولى ولا الثانية، فلا يصح أن يكون معارضًا للسمع بالحال.
ولهذا تجد الذين تتعرض عدتهم دلالة العقل والسمع في حيرة وشك
واضطراب، إذ ليس عندهم مقبول صريح سالم عن معارض مقاوم، كما أنهم
أيضًا في نفس المقبول الذي يعارضون به السمع في خلاف وريب واضطراب،
وذلك كله مما يبين أن ليس في المقبول الصريح ما يمكن أن يكون مقدماً على ما
جاءته به الرسول، وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسول، وأنهم لا
يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله من الخبر
والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطا، كما اتفق على ذلك
جميع المقربين بالرسول من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن جميع
ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء من انفاوض
لدليل عقل ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم
جزمًا قاطعًا أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه
يتمتع أن يعارضه دليل قطعي لا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من
ذلك فإنما هو حجج داحضة، وشبه من جنس شبه السوفستانية.
وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك، وأنه يتمتع أن يعارض
خبره دليل صحيح، كان هذا العقل شاهدًا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو
باطل، فتكون هذا العقل والسمع جميعًا شهدًا ببطلان العقل المخالف للسمع...
ونحن نقول: لا يجوز أن يتعارض دليلان قطعيان، لا عقليان ولا سمعيان.
ولا سمعى وعقلى...

ومن أقر بصحة السمع، وأنه علم صحته بالعقل، لا يمكنه أن يعارضه بالعقل أثباته، لأن العقل عنه هو الشاهد بصحة السمع، فاذًا شهد مرة أخرى بفساده كانت دلالته متناقضًا، فلا يصلح لاثبات السمع ولا لمعارضته.

وفي الجملة، لا يكون الرجل مؤمنًا حتى يؤمن بالرسول إيمانًا جازمًا ليس مشروعا بعدم معارض، فتمتي قال أومن به الأخرى إلا أن يظهر له معارض يدفع خبره، لم يكن مؤمنًا به، فهذا أصل عظيم تجب معرفته، فإن هذا الكلام هو ذريعة الإلحاد والتمايز...

إن العلوم ثلاثة أقسام: منها ما لا يعلم إلا بالعقل، ومنها ما لا يعلم إلا بالسمع، ومنها ما يعلم بالسمع والعقل.

وهذا التقسيم حق في الجملة، فإن من الأمور الغائبة عن حس الإنسان ما لا يمكن معرفته بالعقل، بل لا يعرف إلا بالخبر. وطرق العلم ثلاثة: الحس، والعقل، والمركب منهما كالخبر. وهنا كان أكمل الألم علما المقرب بالطرق الحسية والعقلية والخبرية...

والآدلة العقلية توجب الإقرار بنبوات الأنبياء، فالدليل في نبوة الأنباء...

قدح في الآدلة العقلية...

والآدلة العقلية القطعية ليست جنسًا متميّزة عن غيرها. ولا شيءًا يتفق عليه العقلاء، بل كل طائفة من النظر تدعى أن عندها دليلًا قطعية على ما تقومه، مع أن الطائفة الأخرى تقول إن ذلك الدليل باطل. وإن بطلانه يعلم بالعقل، بل قد تقول إنه قام عندها دليل قطعى على نفيه ذلك، وإذا كانت العقلات ليست متميزة ولا استفجارًا عليها، وجووز أصحابها فيما لا يعلمها أحدهم بالاضطراب من أخبار الرسول أن يقدمها عليه. لزم أن من ذلك تكذيب كل من هو إلا بما بعلم غيره بالاضطراب أن الرسول أخبر به. ومعلوم أن العلوم الضرورية أصل للعلوم النظرية، فإذا جووز الإنسان أن يكون ما علمه غيره من العلوم الضرورية باطلًا جوز أن تكون العلوم الضرورية باطلة، وإذا بطلت بطلت النظرية، فصار قولهم مستلزمًا لبطلان العلوم كلها. وهذا مع أنه مستلزم لعدم علمهم بما يقولونه، فهو متضمن لتناقضهم ولغاية السفقة...
إن الدليل المشروط بعدم المعارضي لا يكون قطعياً، لأن القطبعي لا يعارضه ما يدل على نفيه، فلا يكون العقل دالاً على صحة شيء مما جاء به السمع، بل غاية الأمر أن يظن الصدق فيما أخبر به الرسول، وحينئذ تقول إنه تعارض العقل والنقل قول باطل، لأن العقل عندك قطعي، والشرع ظني، ومعلوم أنه لا تعارض بين القطبعي والظني.

والعقل لا يكون دليلاً مستقلًا في تفاصيل الأمور الإلهية واليوم الآخر، فلا أقبل ما يدل عليه إن لم يصدقه الشرع ويوافقه، فإن الشرع قول المعصوم الذي لا يخطئ ولا يكتب، وخبر الصادق الذي لا يقول إلا الحقًا، وأما آراء الرجال فكثيراً التهافت والتناقض، فلذا لا أثق برأي وعقيل في هذه المطالع العالية الإلهية، ولا يذكر هؤلاء المختلفون المتناقضون الذين كل منهم يقول بعقله ما يعلم أنه باطل، فما من هؤلاء أحد إلا وقد علمنا أنه يقول بعقله ما يعلم أنه باطل، بخلاف الرسول فإنهم معصومون، فلذا لا أقبل قول هؤلاء إن لم يزك قولهم ذلك المعصوم خبر الصادق المصدق.

ومعلوم أن هذا الكلام أولى بالصواب وأليك بأولى الألباب من معارضة أخبار الرسول الذي علموا صدقه، وأنه لا يقول إلا حقًا بما يعرض لهم من الآراء والمعقولات التي هي في الغالب جهيليات وضلالة، فإننا في هذا المقام نتكلم معهم بطرق التنزل إليهم كما تنزل إلى اليهودي والنصراني في مناظرته، وإن كنا عالمين ببطلان ما يقوله: اتباعاً لقوله تعالى: «وجادلوا بآياتك في حقهم» [العنكبوت: 135، وقوله: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بآياتك في حقهم].

إنه لا يمكن أن يكون تصديق الرسول فيما أخبر به معلقاً بشرط، ولا موقعاً على اعتناء مالع، بل لا بد من تصديقه في كل ما أخبر تصديقه جازمًا، كما في أصل الإمارات به...

ومن قال: يجب تصديق ما أدركته بعقله ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقله وتقديم عقله على ما أخبر به الرسول، مع تصديق بأن الرسول صادق فيما أخبر به فهو متناقض فاسد العقل، ملحن في الشرع...

وتحن لم تدع أن أدلة العقل باطلة، ولا أن ما يعلم به صحة السمع باطل، ولكن ذكرنا أنه يمنع مقترحة الشرع بالعقل وثقته عليه، وأن من قال ذلك تناقض قوله، ولزمه أن يكون العقل دليلاً صحيحاً.

١٣٤
وكذلك القول في العقليات المحسنة، كمسألة الجوهر الفرد، وتماثل الأجسام، وبقاء الأعراض، ودوام الحوادث في الماضي أو المستقبل، أو غير ذلك، كل هذه مسائل عقلية، وقد تتنازع فيها العقلاء. وهذا باب واسع.

فأهل العقليات من أهل النفي والإثبات كلي منهم يدعى أن العقل دل على قوله المناقض لقول الآخر، وأما السمع فدلالة معلومة متفق عليها بين العقلاء، وإذا كان كذلك، قيل: السمع دلالة معلومة متفق عليها، وما يقال إنه معارض لها من العقل ليست دلالة معلومة متفق عليها، بل فيها نزاع كبير، فلا يجوز أن يعارض ما دلالة معلومة باتفاق العقلاء بما دلالة المعارض له متنازع فيها بين العقلاء.

واعلم أن أهل الحق لا يطلعون في جنس الأدلة العقلية ولا فيما علم العقل صحته، وإنما يطلعون فيما يدعى المعارض أنه يخالف الكتاب والسنة، وليس في ذلك والله الحمد دليل صحيح في نفس الأمر، ولا دليل مقبول عند عامة العقلاء، ولا دليل لم يُقِدَّ فيه بالعقل...

وكون الدليل عقليًا أو سمعيًا ليس هو صفة تقتضى مدحًا ولا ذمًا، ولا صحة ولا فسادًا، بل ذلك يبين الطريق الذي يعلم، وهو السمع أو العقل، وإن كان السمع لأبد معه من العقل، وكذلك كونه عقليًا وثابرة، وأما كونه سمعيًا فلا يقابل بكونه عقليًا، وإنما يقابل يكونه بدعويًا: إذ البدعة تقابل الشرع، وكونه سمعيًا صفة مدح، وكونه بدعويًا صفة ذم، وما خالف الشرعية فهو باطل، ثم الشرع قد يكون سمعيًا وقد يكون عقليًا، فإن كون الدليل شرعيًا يراد به كون الشرع أثبت، ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه، فإذا أريد بالشرع ما أثبته الشرع، فإنما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا ولكن الشرع نهبه عليه ودل عليه فيكون شرعيًا عقليًا، وهذا كالدلالة التي فيه الله تعالى عليها في كتابه العزيز من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله وإثبات صفاته، وعلى المعاد، فذلك أداة عقلية تعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية.

وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد إخبار الصادق، فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شريعة سمعيًا، وكثر من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية منحصرة في خبر الصادق فقط، وأن الكتاب والسنة لا يدلان إلا من هذا
الوجه، ولمدة يجللون أصول الدين نوعين: العقليات، والسعيوات، ويجللون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة، وهذا عل عنهم، بل القرآن دل على الأدلة العقلية وبينها ونبي عليها، وإن كان من الأدلة العقلية ما يعلم بالعبائين ولوازمه، كقوله تعالى: {سِيرَتُمُ أَباَبَاكُمُ فِي الْأَفَاقٍ وَأَنفُشُوْهُمْ حَتَّى يَبْصِرُواْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ} (فصلت 35)، وأما إذا أريد بالشرعية ما أباحه الشرع وأذن فيه، فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق وما دل عليه ونبيه عليه القرآن وما دلت عليه وشهدت به الموجودات...

والدليل الشرعي لا يجوز أن يعارضه دليل غير شرعي ويكون مقدما عليه، بل هذا معنزا من يقول إن البدعة التي لم يشرعها الله تعالى تكون مقدمة على الشريعة التي أمر الله بها. أو يقول: الكذب مقدم على الصدق، أو يقول: خبر غير النبي يكون مقدمًا على خبر النبي، أو يقول: من نهى الله عنه يكون خيرًا مما أمر به، أو نحو ذلك، وهذا كله ممنقن...

* * *

* والتأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم...* 

فالتأويل إذا لم يكن مقصوده معرفة مراد المتكلم كان تأويله للفظ بما يحتمله من حيث الجملة في كلام من تكلم بمثله من العرب هو من باب التحريف والإلحاد، لا من باب التفسير وبيان المراد...

* وأما تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التي أخبر عنها، وذلك في حق الله هو كنه ذاته وصفاته التي لا يعلمها غيره، ولهذا قال مالك وربيعة (136 هـ) 753 وم، وغيرهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، وكذلك قال ابن الماجشون (1213 هـ) 827 وم، وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف، يقولون: إذا لا نعلم كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وإن علمنا تفسيره ومعناه...

وكذلك الصحابة والتابعون، فسروا جميع القرآن، وكانوا يقولون: إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به، وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه، وكذلك لا يعلمون كيفية الغيب، فإن ما أعدد الله لأوليائه من التعييم لا عين رأته ولا أدن
سمعته ولا خطر على قلب بشر، فذاك الذي أخبر به لا يعلم إلا الله بهذا المعنى.
فهذا حق، وأما من قال: إن التأويل الذي هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه إلا الله، فهذا ينazoء عليه عامة الصحابة والتتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا إنهم يعليمون معناه، والآيات التي ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله، إنما نفى عن غيره علم تأويلها لا علم تفسيرها ومعناها...

* * *

إن لفظ العقل في لغة المسلمين إما يدل على عرض، إما مسمى مصدر عقل يعقل عقولا، واما قوة يكون بها العقل، وهي الغزارة.
والناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا قدر إلى عقولهم فكل واحد منهم عقل، ومؤلء المختلفون يدعى أحدهم أن العقل آناد إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الامة في مواد النزاع إلا الكتاب والسنة...

* * *

أيها الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له، وفي مقام النظر.

أيضاً، فعليه أن يتصور أيضًا بالكتاب والسنة، ويبدو إلى ذلك، وله أن يتكلم مع ذلك وبين الحك الذي جاء به الرسول بالأخلاق العقلية والأمثال الموضعية، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبين بالبراهين العقلية توحيدة وصدق رسله وأمر المعاد وغير ذلك من أصول الدين، وأجاب عن معارضة المشركين، كما قال تعالى: "ولا ينكرك بِكَ إِلَّا جَنِائِقٌ بِالْبَيْنِ وَأَحَسُّنَ تَفْسِيرًا" [القنعة: 32].

فمن أراد أن ينظر مناظرة شرعية بالعقل الصحيح فلا يلزم لفظًا بدعية ولا يخالف دليلاً عقليًا ولا شريعة، فإنه يسلك طريق أهل السنة والحديث والأنثمة.

والذي نختاره ألا يكف أقد من أهل القبلة، والدليل عليه أن يقول:

المسائل التي اختلف أهل القبلة فيها، مثل أن الله تعالى هُنَاك عَالِم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى هل هو موجود لأفعال العباد أم لا؟ وأنه هو مشحوذ؟ وهل هو في مكان وجهة؟ هل هو مثني أم لا؟ فلا تخلو إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف. الأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواحد على النبي صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، علمتنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحاً في حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة.

إن الكافرون حكم شرعي، متعلق عن صاحب الشريعة، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطوه، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفراً في الشرع، كما أنه ليس كل ما كان صواباً في العقل تجب في الشرع معرفته.

وقد نقل عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية، فإنهم يعتقدون حل الكذب. أما أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، فقد
حكى الحاكم (434 هـ - 945 م) صاحب (المختصر) في كتاب (المنتقى) عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لم يكن أحدًا من أهل القبلة، وحكى أبو بكر الرازي عن الكرخي (260 - 340 هـ - 874 - 957 م) وغيره مثل ذلك... (1).

* * *

فالفائق الصريح موافق للشرع متابع لله كيفما أدير الأمر، وليس في

صريح المعقول ما ينافق صحيح المنقول، وهو المطلوب.

ومن المعلوم أن أصل الإيمان تصدق الرسول فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، وقد اتفقت سلف الأمة وأثنتها على أنه لا يجوز أن يكون ذم دليل لا عقلي ولا

غير عقلي يناقض ذلك، وهذا هو المطلوب...

ومن المعلوم أنه في كل مسألة دائرة بين التفويض والإثبات من حق ثابت في نفس الأمر أو تفصيل، ومن المعلوم أن كلام الفلسفة المخالفين دين الإسلام لا يبر أن يناقضه حق معلوم من دين الإسلام، موافق لصريح العقل، فإن الرسول صلى الله وسلم عليه، لم يخبروا بمحاولات العقول، وإنما يخبرون بمجرات العقول، وما يعرف بصريح العقل انتقاؤه لا يجوز أن يخبر به الرسول، بل تخبر بما لا يعده العقل، وما يعجز العقل عن معرفته... (2).

(1) ابن بنيام (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ج1 ص 144 - 49 . 84 - 83 . 91 - 93 . 102 - 98 . 100 - 79 . 77 . 74 . 73 . 55

- 112 . 111 . 112 . 109 . 108 - 80 . 85 . 83 - 79 . 77 . 74 . 73 . 66

(2) المصدر السابق. ج2 ص 2 - 162 - 163
الشاطبي
أبو إسحاق إبراهيم بن موسى
(790-1388 هـ)

الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول، والدليل على ذلك من وجوه:
أحدها: أنها لو نافقتها لم تكن أداة للعباد على حكم شرعى ولا غيره، ولكنها أداة باتفاق العقلاء، فدل على أنها جارية على قضايا العقول.

وبيان ذلك أن الأدلة إنما نصبت في الشريعة لنتلقىها عقول المكلفين حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف، ولو نافقتها لم تلقها فضلاً عن أن تعمل بمقتضاها، وهذا معنى كونها خارجة عن حكم الأدلة. ويستوي في هذا الدلالة المنصوبة على الأحكام الإلهية، وعلى الأحكام التكليفية.

والثاني: أنها لو نافقتها لكان التكليف بمقضيها تكليفاً بما لا يطلق، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوره، بل يتصور خلافه ويصدقه. فإذا كان كذلك امتنع على العقل التصديق ضرورة، وقد فرضنا ورود التكليف المنافي التصديق، وهو معنى تكليف ما لا يطلق، وهو باطل حسبما هو مذكور في الأصول.

والتالى: أن مورد التكليف هو العقل، وذلك ثابت قطعاً بالاستقراء التام، حتى إذا فقد ارتفع التكليف رأساً، وعدًّ فاقده كالعيبهة المهملة، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم التكليف، فلما جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف على العاقل أشد من لزومه على المعقول والصبي والنائم. إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق، بل حين العاقل الذي يأتيه ما لا يمكن تصديقه به، ولمّا كان التكليف ساقطاً عن هؤلاء لزم أن يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً، وذلك منافر لوضع الشريعة، فكان ما يؤدي إليه باطلأ.

(1) (المواقف في أصول الأحكام) ج1 ص 15- 9 - تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صريح - بدون تاريخ

140
والرابع: أنه لو كان كذلك لكان الكفار أول من رد الشريعة به، لأنهم كانوا في غاية الحرص على رد ما جاء به رسول الله ﷺ، حتى كانوا يفتترون عليه ويعلوهم، فتارة يقولون ساحر، وتارة مجنون، وتارة يكتبونه، كما كانوا يقولون في القرآن: سحر، وشعر، وافتراء، وإنما يعلمه بشر، وأساطير الأولين، بل كان أولى ما يقولون: إن هذا لا يقول، أو هو مخالف للعقل، أو ما أشبه ذلك، فلما لم يكن من ذلك شيء دل على أنهم عقلوا ما فيه وعرفوا جريانه على مقتضى العقول، إلا أنهم أروا من اتباعه لأمور أخر، حتى كان من أمرهم ما كان، ولم يعترضه أحد بهذا المدعى، فكان قاطعًا في تغيه عنه.

والخامس: أن الاستقراء دل على جريانه على مقتضى العقول، بحيث تصدقها العقول الراجحة وتتفق لها طائفة أو كارهة، ولا كلام في عناية معاند ولا في تجاهل متعامد، وهو المعنى يكونه جارية على مقتضى العقول، ل أن العقول حاكمة عليها ولا محسنة فيها ولا مقبحة، ويسع هذا الوجه مذكور في كتاب المقاصد في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإلهام.

فإن قيل: هذه دعوى عريضة يصد عن القول بها غير ما وجه.

أحدها: أن في القرآن ما لا يقول معناه أصلا، كل نوان السور، فإن الناس قالوا إن في القرآن ما يعرفه الجمهور، وفيه ما لا يعرفه إلا العرب، وفيه ما لا يعرفه إلا العلماء بالشريعة، وفيه ما لا يعرفه إلا الله، فمن جريان هذا القسم على مقتضى العقول؟

والثاني: أن في الشريعة متشابهات لا يعلمهم كثير من الناس، أو لا يعلموها إلا الله تعالى، كالتشابهات الفرعوية، وكالمتشابهات الأصولية، ولا معنى لاشتباهها إلا أنها تتشابه على العقول فلا تفهمها أصلا، أو لا يفهمها إلا القليل، والمعظم مصدودون عن فهمها، كيف يطلق القول بجريانه على فهم العقول؟

والثالث: أن في قلها أشياء اختلفت على العقول حتى تفرق الناس بها ففرق، وتحزبو أحزابًا، وصار كل حزب بما لديهم فرحون فقلا فيها أقولا كل على مقدر عقله ودينه، فمنهم من غلب عليه هواه حتى أده ذلك إلى اليهودية كنصرى نجران حين اتبعوا في القول بالتأثيث قول الله تعالى «فعلنا» و«قضينا» و«خلقنا»، ثم من بعدهم من أهل الاتمت إلى الإسلام الطائفين على الشريعة.

141
بالتناقض والاختلاف، ثم يليهم سائر الفرق الذين أخبر بهم رسول الله ﷺ. وكل ذلك ناشئ عن خطاب يزل فه العقل كما هو الواقع، فلو كانت الأدلة جارية على تعلقات العقول لما وقع في اعتقاد هذا الاختلاف، فلما وقع فهم أنه من جهة ما له خروج عن العقول ولو بوجه ما.

فالجواب عن الأول: أن فوائج السور للناس في تفسيرها مقال، بناء على أنه مما يعلمه العلماء، فإن قلنا إنه مما لا يعلمه العلماء أبلة، فليس مما يتعلق به تكلف على حال، فإذا خرج عن ذلك خرج عن كونه دليلاً على شيء من الأعمال، فليس مما نحن فيه، وإن سلم فالفقه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى في الشريعة نادر، والنادر لا حكم له، ولا تنخرم به الكلية المستقل عليها أيضًا، لأنه مما لا يندرج في الفقه، وليس كلامنا فيه، إنما الكلام على ما يؤدى مفهومًا، لكن على خلاف العقول، وفوائج السور خارجة عن ذلك، لأننا نقطع أن لها لو بيئة لنا معانيها لم تكن إلا على مقتضى العقول، وهو المطلوب.

ومن الثاني: أن المشابهات ليست مما تعارض مقتضيات العقول وإن توهيم بعض الناس فيها ذلك، لأن من توهيم فيها ذلك فينحو على اتباع هواه كما نقص عليه الآية: قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زغ فيهمون ما كتبنا بهم من نعمة لغدًا وغدًا) [آل عمران: 7] لا أنه بناء على أمر صحيح، فإن إنه إن كان كذلك فالتآويل فيه راجع إلى معقول موافق، لا إلى مخالف، وإن فرض أنها مما لا يعلمه أحد إلا الله فالعقلون عنها مصدودة لأمر خارجي، لا لمشاركته لها. وهذا مما يأتي في الجملة الواحدة فكل ذلك يأتي في الكلام المحتوى على جمل كثيرة وأخبار بمعنى كثيرة ربما يتوهم القاصر النظر فيها الاختلاف، وكذلك الأعجمي الطبع الذي يظن بنفسه العلم بما ينظر فيه وهو ناجم به، ومن هذا كان اجتهاد نصارى نجران في التثليث ودعو العقلين على القرآن والسنة التناقض والمخالفات للعقل، ووضموا إلى ذلك جهلهم بحكم التشريع فخضوا حين لم يؤذن لهم في الخوض وفيما لم يجز لهم الخوض فيه فتناهو، فإن القرآن والسنة لما كانا عربين لم يكن لينظر فهمه إلا عربي، كما أن من لم يعرف مقاصدهما لم يجل له أن يتكلف فيهما، إذ لا يصح له نظر حتى يكون عالماً بهما، فإنه إذا كان كذلك لم يختلف عليه شيء من الشريعة.


هذا تمام ما قال في الجواب، وهو بين أن جميع ذلك معقول إذا نزل منزلته... والى من بابه، وهكذا سائر ما ذكر الطاعنون، وما أشكل على الطالبين، وما وقف فيه الراسخون وثورة كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] [النساء: 82].
إن الإنسان كون عقلي، سلطان وجوده العقل، فإن صلح السلطان، ونذ
حكمه، صلح ذلك الكون وتم أمره(1)... والعقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى
الإنسانية وعمادها، والكون جميعه صحيحته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه،
وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه(2).

وفي تفسير قول الله - سبحانه وتعالى: (وأنزل القرآن) [آل عمران: 4]. يقول
الإمام محمد عبده: "إن القرآن هو العقل الذي به تكون النفس عن الحق والباطل،
إذ إن ذالك من قبلي إنزل الحكمة. لأن كل ما كان عن الحكمة العلمية الإلهية يسمى إعطاوه
إنزالا(3) والعقل الذي يزني كل شيء هو عهد الله الذي أخذه على جميع البشر
بمقتضى الفطرة، وهو المدير والترؤي والنظر الصحيح(4) والحكمة - المشتر إليها
في قوله تعالى: (وأيما الحكمة من نبات، ومن هؤلاء الحكمة فقد أوري خيرًا كبيرًا وما يدكر إلا
أول الألباب) [البقرة: 226] هي العلم الصحيح. يكون صفة محكمة في النفس، حاكمة
على الأداء، توجهها إلى العمل، وتمت كن العمل صاديقًا عن العلم الصحيح كان هو
العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة.

والمراد بإياباته الحكمة من يشاء إعطاؤه آثنا - العقل - كاملا، مع توفيقه لحسن
استعمال هذه الألّة في تحصيل العلوم الصحيحة، فالعقل هو الميزان القسط الذي توز
به الخواطر والمرادك وبه أنواع التصورات والتصديقات، فمثى رجعلي فيه كفة
الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام(5).

(1) (الأعمال الكاملة) ج. 2 ص 165
(2) المصدر السابق ج. 3 ص 277
(3) المصدر السابق ج. 5 ص 10
(4) المصدر السابق ج. 4 ص 160
(5) المصدر السابق ج. 4 ص 175

144
ولقد كان أهل الكتاب متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضمان لا يجمعمان، والعلم والدين خصمان لا يتفقان، وأن جميع ما يستنتج العقل خارجًا عن نص الكتاب فهو باطل.


وإكتشاف القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجود الاهتمام به. ومن قول الحديث على النظر في الخليفة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة، واستخرج علومها لترقي الفروع الإنسانى الذي خلقته هو لأجله، مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأوديت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به...

- "إن مثل النوع الإنساني كله كمثل شخص من أشخاصه أبوه ومربوه في كل طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله. وحاجة سن، وكذلك عامل السن النوع الإنساني، فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم، وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى، حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين ﷺ الذي هو دين سن الرشد لنوع الإنسان. وكون الرسول ﷺ خاتم النبيين، لا يرد في القرآن لكون طبيعة الوجود دائلة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه. كأن الأم تطلب عفلاً في دين، فوافقاً، وتطلع إلى عدل في إيمان، فأناه، مما الذي يحزم بها عن المسارعة في طلبتها والمبادرة إلى رغبتها؟ إن سرعة انتشار الدين الإسلامي، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعطله، ويسر أحكامه، وعدالة شرعته...

المصدر السابق ج: 4 ص 128،127.
المصدر السابق ج: 3 ص 535.
المصدر السابق ج: 3 ص 486،481،482.
لقد أضحى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حدة لم يردها عنه القدر، فبدأت فيالله المتغلبة على النفس، واقتلت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم.

علا صوت الإسلام على وسائط الطاغم، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام. أعمالهم الكون ودلال الحوادث، وإنما المتعلم ينبهون ويرشدون، وإلى طريق البحث هادون، صرح في وصف أهل الحق بأنهم "الذين يستمتعون القرآن فتَبَيِّنَ أَحْسَنَهُ" [الأسماء: 18]. فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسن بك، ويطورموا ما لم يبتينوا صحته ونفعه، ومال على الزؤاء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه بأمور وينهوهم، ووضعهم تحت أنظار مروسيهم، يختبرونهم كما يشاءون، ويمتنعون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون، ويتثبتون، لا بما يظنون ويتوقون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء.

وسجل الحمق والسفاهة على الأخذين بأقوال السابقين، ونبوءه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مُسْتَبِبًا لعقول على عقول، ولا أظهار على أذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق في التميمي والفطرة سيان، بل لللاحق من علم الأصول الماضية واستعداد للنظر فيها، والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون مالم يكن من تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها آل الجبل الحاضر ظهور العواقب السيدة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل إليه بما اقتبرف سلفهم "فَلَسَأَبُوْيُنَا فِي الأَرْضِ مَنْ أَطْوَرْنَا كَفَّانَ عَدْيَةٌ كُنْتُمْ" [الأنعام: 11]. وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمة التي وسعت كل شيء لضيق عن دائب.

عبت الإسلام أرباب الأديان في اقتطاعهم أكثر أباهم، ووقوفهم عندما اختطته سير أسلافهم، وقولهم: "لَيْنُبِينَنَّ أَنَا وَجَدَنَا عَلَى أَيَّةٍ أَنَا وَجَدَنَا عَلَى أَمَّةٍ وَأَنَا عَلَى أَنَا رَحَمُونَ" [الزخرف: 32]. ولقد أطلق الإسلام - بهذا - سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، وردته إلى ملكته بقضي فيها يحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك الله وحده والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل في منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.
بينما تم للإنسان يمتنع، دينه أمران عظيمان: طالما حرم منهما، وهما: استقلال الإراده، واستقلال الرأي والفكر، وكما كانت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأته الله لهحكم القترة التي فطر عليها. وقد قال بعض حكماء الغربيين، من متأخريهم، إن تشاؤة الدنيا في أوربة إنما قامت على هذه الأصولين، فلم تنحسر النفس للعمل، ولم يتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم، وأن لهم حقا في تصريف اختبارهم، وفي طلب الحقائق بعقلهم، ولل يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك الحكم: إنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام، ومعارف المحققين من أهلة في تلك الأزمان.

ولضعف العقل أسباب، منها ما هو فطري، كما هو حال أهل العهده والبلد، والذي لا يكلف صاحبه ولا يلام، ومنها ما يكون من فساد التربية العقلية، كما هو حال المقدرين الذين لا يستعملون عقولهم، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات، ويرينون على قلوبهم ما يكسبونه من السينمات وما يكونون عليه من التقاليد والعادات، ولا يعتنون بما أمر الله من تمزيق هذه الحجب، وإزالة هذه السحب، للوقوف على ما وراءها من مخزونات العرفان، ونجوم الفرقان، ومنشومات الإيمان، بل يكتفون بما حكيgetState الله عنهم في قوله: {إنا وحذنا أبا ناك على أمارتنا، ونجنا على أقرارنا، فقتلونا} [الزخرف: 33]. حتى يجع اليوم الذي يقولون فيه: {أطيعنا ساداتنا وكراءنا، فأظلمنا سبيلنا} [الأحزاب: 17].

والعقل هو اللعب: {إنا في خلق السموات والأرض وخلق الأتربة} [الأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقيامًا وعليه جنوبهم وتفكرون في خلق السموات والأرض رابطًا ما خلقته هذا إبلاً مبجانًا فاقت عباب النار} [آل عمران: 190 – 191]. وإنما خص أولى الألباب بالذكر مع أن كل الناس أولو ألباب، لأن من اللعب مالا فائدة فيه، كله الجوز، ونحوه إذا كان عفنا، وكذا تفسد ألباب بعض الناس وتعفن، فهي لا تنتهي إلى الاستفادة من آيات الله في خلق السماوات والأرض وغيرها.

ولما سمي العقل لبًا لأن اللعب هو محل الحياة من الشيء شرمه، فصاحبته، وإنما حياة الإنسان الخاصة به، وهي حياته العقلية، وكل عقل متمكن من

---

(1) المصدر السابق، ج: 3 ص 443، 444، 445.
(2) المصدر السابق، ج: 4 ص 80.
لا يعد الله تعالى به ولا يستفيد الإنسان منه، فمن لم يطرق الإيمان قلبه بقوة البرهان، ولم يحل مذاقه في الوجدان، بحيث يكون هو المصراف له في أعماله، لا ينفعه إيمانه، إذا إذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وخلاص، حتى يحدث لقلب الوجدان الصالح(1).

ولذا علينا اعتقادنا أن الدين الإسلامي دين توحيد في العبادات، لا ينفج في القواعد، والقول من أشد أعوانه، والنفل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل عمله، قاصد عليه في صوابه وخطائه(2).

لا استفادة من النظر في هذه الآيات والاستدلال بها على قدرة الله وحكمته، ولكن بعضهم لا ينبغي ولا ينكر، وإنما العقل الذي ينظر ويستفيد يهبتي هو الذي وصف أصحابه بقوله تعالى: «أَلَات اِلَّهَ قَيَامًا وَقَفَّةً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ» [آل عمران: 91] والذكر في الآية على عموه، لا يخص بالصلاة، والمراد بالذكر ذكر القلوب، وهو استحضار الله تعالى في النفس، وتذكر حكمته وفضله ونعمه، حال القيام والقعود والاضطجاع، وهي الحالات الثلاث التي لا يخلو العيد عنها، تكون فيه السماوات والأرض معه لا يغفران. والآيات الإلهية لا تظهر من السماوات والأرض إلا لأهل الذكر، فكأنهم من عالم يقضي له فرصة الكواكب فيه. فعندها مالا يعرف الناس، ويعرف من نظامها وسنينها وشراعها ما لا يعرف الناس، وهو يتلذذ بذلك العلم ولكن مع هذا لا تظهر له هذه الآيات، لأنه منصرف عنها بالكلية.

والفقرة في القواعد، والقول من أشد أعوانه، والنفل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين أو شهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل عمله، قاصد عليه في صوابه وخطائه(2).

(1) المصدر السابق: ج 5 ص 769
(2) المصدر السابق: ج3 ص 326, 325
لقد تآخي العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله وبدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالمعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسول، وعمره بما يحوّي به إليه، وإرادته لاختصاصهم برسالتهم، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه من فهم معني الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها.

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلم على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل (1)... ولقد جعل الله المتشابه في القرآن حافزا للعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيهم، فإن السهل الجلي جدا لا عمل للعقل فيه، والدين أعز شيء على الإنسان، فإذ لا لم يجد فيه مجالا للبحث يموم فيه، وإذا مات فيه لا يكون حيا بغيره، فالعقل شيء واحد، إذا قوى في شيء قوى في كل شيء، وإذا ضعف ضعف في كل شيء، ولذلك قال: "والراصنون في العلم" (العمان 7) ولم يقل والراصنون في الدين: لأن العلم أعم وأشمل، فمن رحمته تعالى أن جعل في الدين مجالا لبحث العقل بما أوعده في من المتشابه، فهو بحث أولا في تمييز المتشابه عن غيره، وذلك يستلزم البحث في الأدلة الكونية والبراهين العقلية وطرق الخطاب ووجهة الدلالة ليصل إلى فهمه ويهتدي إلى تأويله (2). ولا أهل السنة مذهبان في المتشابهات التي يستحيل حملها على ظاهرها، وهم: مذهب السلف في التفسير، ومذهب الخلف في التأويل. والقاعدة في التأويل هي إرجاع النقل إلى العقل لأنه الأصل (3). ولقد أجمعَت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات. وقد قام البرهان العقلى والبرهان النظري على هذه العقيدة، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره، وهو التنزيه، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يتناقض ظاهره التنزие، فلمسلمين فيه طريقتان:

(1) المصدر السابق، ص 146، 147، 148.
(2) المصدر السابق، ص 146، 147.
(3) المصدر السابق، ص 146، 147.
بمضمون كلامه مما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا،
والثانية: طريقة الخلف، وهي التأويل، يقولون: إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أسس العقل، فلا يخرج شيء منها عن المعقول، فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه، يكون الحكم العقل القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره، ولا يلزم منه معتنى موافق يحمل عليه فينيغى طلبه بالتأويل، وأنه على طريقة السلف في وجوه التسيم والتقويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب.

قول السلف في الملائكة. إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وبعض عملهم، فيجيب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم، فيعوض علمها إلى الله تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نويعًا من ذلك، ولكننا نقول إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور. إذ لو كانت كذلك رأيناها، وإذا ورد أنهم موكولون بالعبادات الجسمانية كالنهايات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالمًا آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا، بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوعي الذي أخبر به.

وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم، ولكن من وقفهم الله تعالى على هذا السر قليلون، والدين إنما شرع للناس كافه. فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته، لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم به يكاد يكون من تكليف مالاً بطاق، ومن خصص الله تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله بوتبي من يشاء، ورد في الصحيح عن أمير المؤمنين عليه كرم الله وجهه - في هذا العلم الدين الخاص، وقد سئل:

هل خصمك رسول الله ﷺ بشيء من العلم؟

فقال: لا، والذي فلق الحببة وبرأ النسمة، إلا أن يؤمن الله عبده فهمًا في القرآن.. إلخ.
أي نسجروا كلهم أجمعون إلا إيليس، وهو فرد من أفراد الملائكة، كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة، إلا أن أخرى الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن، وإنما فلما للملائكة نسجروا إلا إيليس كان من الجن» [الكهف: 50]. وليس عندما دليل على أن بين الملائكة والجن فصليا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر، وإنما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف، كما ترشد إليه الآيات.

فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأى جمهور المفسرين في قوله تعالى: وجعلنا بينه وبين الجنة نسا [الصافات: 81]. وعلى الشياطين في آخر سورة الناس. وعلى كل حال فجميع هؤلاء المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب، لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنسبة شيء إليها مال مبرد لنا في نص قطعي عن المعصوم.(1)

ومن اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشرائع العملية، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول، وذهب يعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل على أنها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئًا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئًا من بناء الشريعة في التكليف، كان مؤمنا حقًا، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ماتباغها طاقة العامة، إلا إلى ما تشتته عقول الخاصة، والأصل في ذلك أن الإمام هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر، بل يقيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل(2). فعلى كل من يعتقد بالدين أن ينكذب شيئًا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا يدليل طائل عن بأن الظاهر غير مراه(3).

(1) المصدر السابق جد: 142 ص 129 - 671.
(2) المصدر السابق جد: 141 ص 670.
(3) المصدر السابق جد: 142 ص 671.
وإنما يعرف الناس ما يقع تحت حكم الحس والعقل فيقولون عند حدتهم ولا ييطالبون إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب؛ لأنهم يعلمون أن لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه، وإنما سبيله التسليم، فيقولون أمنا به كل من عند ربيّ.

ولقد ورد للفظ الجنّة والجبّانات كثيراً في مقابلة النار (بالقرآن الكريم).

والجنة، في اللغة البستانية، والجبّانات جمعها، وليس المراد بهما مفهومهما اللغوي فقط، وإنما هي دار الخلوة في النشأة الأخرة، فالجنة دار الأبرار والمتقين، والنار دار الفجّار والقاسيقين، ففيهما بما بالغ فيها لا يبحث في حقيقة أمرهما، ولا نزيد على النصوص القطعية فيهما شيءًا لأن عالم الغيب لا يجري فيه القياس.

ومما وصف الله تعالى به الجبّانات قوله: "يرجون من تجاهها الأنهار" (البقرة: 25).

والمناسبة ظاهرة، فإن البساتين حياتها بالأنهار.

وهل سبت دار التعبد جنّة وجبّانات على سبيل التشبيه، وذكرت الأنهار ترشيحًا له؟ أم سبت بذلك لأنها مشتملة على الجبّانات، تسمية لكل باسم البعض؟ الله أعلم بمراده.

ونساء الجبّانات من المؤمنات الصالحات، وهم المعروفات في القرآن بالحور عين، وصحبة الأزواج في الآخرة كسائر شفونها الغيبية، نؤمن بما أخبر الله تعالى بها، لا نزيد فيه ولا ننقص منه، ولا نبحث في كيفيته، وإنما نعرف بالإجمال أن أطوار الحياة الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا، ونحن نعلم أن الحكمة في لذة الأزواج بالصياغة الزوجية المخصصة هي التناسل وإتمام النوع، ولن يرد أن في الآخرة تناسلا، فلايد أن تكون لذة المصايبية الزوجية هناك أعلى، وحذرتها سامي، وإننا نؤمن بها ولا نبحث في حققتها. كّلما زلفوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي زلفتا من قبل (البقرة: 25).

إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا، والتشويق للناس إنما يكون بحسب ما عهدوا واعتادوا وألفوا، وإننا نعلم أن الأكل في الدنيا لأجل حفظ البنية من الانحلال ولا انحلال في دار الخلد والبقاء، فلايد أن يكون الأكل والشرب هناك

(1) المصدر السابق، ج 5 ص 12.
على ما ورد لحكمته أخرى، أو هو لتحصيل لذة لا تعرفها: لأنها من أحوال الغيب، وإنما نؤمن بما ورد وتفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى.

(1) فاطرنا الناز (البقرة 24).

وهى موطن عذاب الآخرة، نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر الله تعالى به، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا نقول إنها شبيهة بنار الدنيا ولا أنها غير شبيهة بها، وإنما نثبت لها جميع الأوصاف التي وصفها الله تعالى بها.

(2) وأما اللوح المحفوظ، الذي ذكرنا أنه فوق السماء السبع، وأنه مساحته كذا، وأنه كتب فيه كل ما علم الله تعالى، فلا ذكر له في القرآن وهو من عالم الغيب، فالإيمان به إيمان بالغيب يجب أن يوقف عند النصوص الثابتة بلا زيادة ولا نقص ولا تفصيل، وليس عندنا في هذا المقام نص يجب الإيمان به.

(3) والسحر عند العرب: كل ما لطف مأخذه ودق وخفى. ومنه الخداع، وهو أن يظهر لك شيء غير الواقع في نفس الأمر، فالواقع باطن خفي.

(4) • • •

ولابد في تحقيق الإيمان من اليقين، ولا يقين إلا برهان قطعي لا يقبل الشك والارتباط، ولابد أن يكون البرهان على الألوهية والثنوية عقليًا، وإن كان الإرشاد إليها سمعيًا، ولكن لا ينحصر ال البرهان العقلي الموجب إلى اليقين في تلك الأذلة التي وضعها المتكلمون وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون، وقائمة تخلص مقدماتها من خلل، أو تصح طرقها من علل، بل قد يبلغ أمى علم اليقين بنظرية صادقة في ذلك الكون الذي بين يديه، أو في نفسه إذا تجلت بغرائبها عليه، وقد رأينا من أولئك الأمينين ما لا يلحقه في بقينه آلاف من أولئك المتقننين الذين أفقون أوقاتهم في تنقيح المقدمات وبناء البرهان، وهم أسوأ حالا من المقلدين.

(5) المصدر السابق ج 4 ص 111-114.
(6) المصدر السابق ج 4 ص 108.
(7) المصدر السابق ج 4 ص 517.
(8) المصدر السابق ج 4 ص 254.
(9) المصدر السابق ج 4 ص 110.
إن الجمهور الأعظم من الناس، بل الكل - إلا قليلاً - لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وأراءهم بمنطق أرسطو، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى عقولهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معتبر لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس ولا في إصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفس واعظًا بينها في تخفيض بلاء ساقه الضرع إليها، فلأ طريق أقرب إليك في مهادمة شهواتهم وردها إلى الاعتدال في رغابتها؟

من البدهي أنك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار الإسراف في الرغب وفوائد القصد في الطلب وما ينحو نحو ذلك، مما يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطول النظر، وإنما تجد أقصر الطريق وأقومها أن تأتي إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدره الله الذي ويهب ما وهب الغالب عليه في أدنى شئوته إليه، المحيط بما في نفسه، الآخر بآرذة هممه وتسوق إليه من الأمثال ما يقرب إلى فهمه، ثم تروي له ما جاء في الدين المتقدم به من مواعظ وغير، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقامة وسطره عليه إذا تجاج، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخرج الغضب، وتحم الشهوة، والساعم لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع، ويسخطهم إذا عصى، ذلك هو المشهود من حال البشر، غابرههم وحاضرهم، ومنكره يسمن نفسه أنه ليس منهم!

كم سمعنا أن عيبنا بكت، وزورات صعدت، وقليلا خشعت لواعظ الدين? لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصائح الأدب وعوام السياسة؟

منى سمعنا أن طبقة من الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعه لعامتهم أو خاصتهم، وينقى الشر من بينهم لما يجمله عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر، ولا ينطوق على فطرتهم، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد، ولا قيام للأمنين إلا بالدين، فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة، بل والخاصة، وسلطانه على النفس أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم.
الدين أشبه بالبواعث الفكرية الإلهامية منه بالبواعث الاختيارية، الدين هو قوة من أعظم قوى البشر، وإنما قد تعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى.

ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرة في قضايا الدين، وإن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنقذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام.

فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين علمًا يُعبّد به، وإنما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي، كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحارة البصر وحدها، بل لا يدع منها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك الدين هو حاسة عامة للكشف ما يكتب على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال.

كيف ينكر على العقل حقه في ذلك، وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وأيها أتيئة من قبل الله، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه، والتأتون إلى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضنين في موضوع واحد، في أن واحد، فإن ذلك مما تنزله النبيات عن أن تأتي به، فإن جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الورد فيها، ووجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مارد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل، مسترشدًا ببنيته ما جاء على لسان من ورد المتسبب في كلامه، وفي التفويض إلى الله في علمه، وفي سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني (1).

إن الإنسان (بقوة العقل) غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفرادوا، يتصرف بجميعه في الكون تصرفًا لا حد له بإذن الله وصرفه، وكما أعطا الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الأرض وسخر له عوالمها.

(1) المصدر السابق ج 3 ص 375، 376، 374، 373.
أعطاه أحكامًا وشروط، حد فيها لأعماله وأخلاقه حديثًا يحمول دون غي أفراده وطوانى بعضهم على بعض، فهى تساعده على بلوغ كماله؛ لأنها مشرقة ومرية للعقل الذي كان له كل تلك المزايا، فلهذه كله جعله خليفته في الأرض، وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلاقة».

لم يدعا رسول الله ﷺ الناس أجمعين، ذكرًا وإناثًا، عامة وسادة، إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصمه الله بالعقل، وميزة بالفكر، وشرفه بهما ودرجة الإرادة، فيما رشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمهما والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خلفهم بعقلهم وفكارهم بدون وساطة أحد إلا من خصصهم الله بوجيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبوع الكائنات أجمع.

والحاجة إلى أولئك المتعلقين (الرسول ﷺ) إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده.

وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما سمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادة إلى ما سخر له بمقتضى الفطرة.

نبي صدق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار، أو يثير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعد له، واختص العقل بالخطاب، وحкамه إليه النهاة والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(وكذلك) كان كبار الصحابة يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله؛ لأنهم طبعوا عليه معرفة الحق بالدليل، هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعها أو لما نجحت، وأما سائر الناس فتبع لهم وعبال عليهم (3).

(1) المصدر السابق ج2 ص467، 136.
(2) المصدر السابق ج2 ص483.
(3) المصدر السابق ج2 ص489.

156
الوجهان - أوجع الألم عند القضاة، فالعقل يستطيع أن يمنع نفسه من أكثر اللذات الحسية، ولكنّه لا يستطيع أن يمنع عقله العلم وذهنه الفهم، فقد قيل "لديوجين" لا تسمع، فسأ أذنيه، قيل له: لا تبصر، فأغمض عينيه، قيل له: لا تدفق، فقلت له: لا تفهم، فقال: لا أقدر«(1)

ولكن من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر، فساق همته إليه، واستفرغ جبهته فيه، ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعى إليه، وانقضى عمره وهو في الطلب. فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنّه ممن ترجه له رحمة الله تعالى، وينقل صاحب هذا الرأى قوله عن أبي الحسن الأشغري، وعلى رأى الجمهور، فلا ربى أن مؤاخذه أخف من مؤاخذة الجاحز الذي استعنصى على الدليل وكفر بنعمة العقل أو رضى بحظه من الجهل«(2)

إذا الكفر هو جهود ما صرح به الكتاب أنه منزل من عند الله، أو جهود الكتاب نفسه، أو النهى الذي جاء به، وبالجملة ما علم من الدين بالضرورة بعد ما بلغت الجاحز رسالة النبي بالغًا صحيحًا، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك ووجدته عناً أو تساهلاً أو استهزاءً، لينظر بذلك أنه لم يستمر في النظر حتى يؤمن.

ولم تسمع أن أحدًا من الصحابة، رضي الله عنهم، كفر أحدًا بما وراء هذا، فما عداء من الأفكار والأفكار المختلفة لبعض ما أسند إلى الدين، ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة، أي لم يكن سنده قطعًا كصد الكتاب، فلا يعد منكره كافراً إلا إذا قصد بالإصرار تكذيب النبي ﷺ، فإنه كان للمنكر سند من الدين يستند إليه فلا يكفر، وإن ضعفت شبهته في الاستناد إليه، فإنه لم يسبق على النبي ﷺ.

وفيما يعتقد، ولم يستنك بساء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم.

ولقد تجأ بعض المتأخرين على تكفر من يتأول بعض الطلائع، أو يخالف شيئًا مما سبق الاجتهاد فيه، أو ينكير بعض المسائل الخلافية، فجرؤ الناس على هذا الأمر العظيم، حتى صاروا يكلفون من يخالفهم في بعض العادات، وإن كانت

(1) المصدر السابق ج. 4 ص 424
(2) المصدر السابق ج. 4 ص 5150
من البدع المحظورات، ثمهم على عقائد الكافرين، وأخلاقي المناققين، ويعملون أعمال المشركين، ويسعون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين) (1)

حدود العقل:

(2)

(3)

(4)

ولذلك النص ذي الاعظم) (النساء: 13).

طاعة الرسول هي طاعة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إنما بأمرنا بما يوجهه إليه الله من مصالحتنا التي فيها سعادتنا في الدنيا والأخرة، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله، فإن من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية وبعدها، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم أن الإنسان يمكن أن يستغني بعضه وعلمه عن الوجه، يقول أحدهم: إنني أعتقد أن للعالم صانعًا عليّمًا حكيمًا، وأعمل بعد ذلك بما يصل إليه عقله من الخبر واجتذاب الشيء، وهذا خطأ من الإنسان، ولو صرح ذلك لما كان في حاجة إلى الرسل، إن الإنسان بطبيعته النموذية يحتاج إلى هديته الدين، وهي الهداية الراشعة التي وهبها الله للإنسان بعد هديته الحواس والوجدان والعقل، فأمّا، في عصر من العصور كافّةً للهديته أمه من آمنه ومرقية له بدون معونة الدين.

وأشق التكاليف حمل العقول على أن تفكر في غير ما عرفت، وحث النفس على أن تتكيّف بغير ما تتكيف(2).

وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حسبًا كان أو وجدانًا أو عقلاً، ثم الوصول بذلك إلى معرفة مناشتها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإجابة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها. أما الوصول إلى كنه حقيقة فممّا لا تبلغه قوته؛ لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتر Ih ما تركبت منه، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف، وهو لا سبيل إلى اكتناه بالضرورة، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عواجره وأثاره.

(1) المصدر السابق ج. 4 ص 72.
(2) المصدر السابق ج. 5 ص 182.
(3) المصدر السابق ج. 4 ص 191.
أخذ أظهر الأشياء وأجلاها، كالضوء: قرر الناظرون فيه له أحكامًا كثيرة فضلواها في علم خاص به، ولكن لا يستطيع ناظر أن يفهم ما هو، ولا أن يكتنّه معنى الإضاءة نفسه، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان، وعلى هذا القياس.

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتشاف شيء من الكائنات، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص، ولذا غفله. إن كان سليماً، إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسبي، فالاستغلال بالاكتشاف إضاعة للوقت، وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه.

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه، وهي نفسه، أراد أن يعرف بعض عوارضها، وهل هي عرض أو جوهور؟ هل هي قبل الجسم أو بعدة؟ هل هي فيه أو مجرد عنه؟ كل هذه صفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليها، وإنما مبلغ جده أنه عرف أنه موجود، حي له شعور وإرادة، وكل ما أحادث به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها بديهته، أبداً كنه شيء من ذلك، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده، ولا يجد سبيلًا للعلم به.

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود، أو ينحص عنه، وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه، كالتفكير وارتباطه بالحركة والنطق، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى؟ ماذا يكون اندهاشه، بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأولي الأبدى؟

النظر في الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، وضياء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه أثاره، وعلى راحتها تجلت أنواره، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدر عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام.

وتختلف الأنظار بين الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل، ولا بد أن يظهر الحق ويعل الباطل، بتعاون الأفكار، أو صولة القوى منا على العقيدة.
أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتشاف من جهة، وهو ممتنع على العقل البشري، لما علمت من انقطاع النسبة بين الموجودين، والاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهمكة. إنه سعى إلى ما لا يدرك، ومهمكة لأنه يؤدى إلى الخطأ في الاعتقاد؛ لأنه تهديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره.

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان، كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها، فالنهاية واستحالة الوصول إلى الاكتشاف شاملان لها، فكيفنا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها. أما ما وراء ذلك فهو مما يتأثر هو بعلمه، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وما سبقه من الكتاب، إلا بتوجيه النظر إلى المصونع لينفعل منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته القيالية، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه.

فالذي يوجيه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود، لا يشبه الكائنات، أوزل، أبيد، حي، عالم، مريد، قادر، متفرد في وجوده، وفي صفاته، وفي صنع خلقه، وأنه متكامل، جميع، بصير، وما يتع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه.

أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات، ونحو ذلك من الشروط التي أختلف عليها النظر، وتفرقت فيها المذاهب فما لا يجوز الخوض فيه؛ إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شيء منه، والتأمل الواو، ضعف في العقل، وتهريب بالشرع لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة، ولكن انحصر فيها نوض الغلبة لا تراعي فيه الموجودات بكونها الحقيقة، وإنما تلك مذاهب قليقة، إن لم يضل فيها أمتهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع، فما علينا إلا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وما جاء به رسوله ممن تقدمنا.

(*) إن واجب الوجود وصفاته يعرف بالعقل، فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية. ولم تبلغه بذلك رسالة، كما حصل لبعض

المصدر السابق، ج.3، ص.379-381.
أقوام من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل في الإنسان يبقى بعد موته، كما وقع لقوم آخرين، ثم انتقل من هذا مخطئًا أو مصيرًا، إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء. ثم قال: إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله والفضائل، وأنها إنما تسبق في الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبئس على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة، ومنها ما هو ضار لها بعدة بإيقاعها في الشقاء، فأما مانع عقل أو شرع ينظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله: أن معرفة الله واجبة، وأن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة، وأن الرذائل وما يكون منها محظورة؛ وأن يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بذلك ما يعتقد، وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه.

أما أن يكون ذلك حالًا لعامة الناس، يعلمون بعقوبهم أن معرفة الله واجبة، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى، والرذائل مدار الشقاء فيها، فما لا يستطيع عاقل أن يقول به، والمشهور من حال الأمم كافة يفضل القائل به في رأيه...«(1).

لاقد اتفقت كلمة البشر، موحدين ووثنيين، مليئين وفلاسفية. إلا قليلا لا يقام لهم وزن، على أن ننفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فتاة مطلقًا، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختفى منازعهم في تصوير ذلك البقاء.

كذلك قد ألهمت العقول وأشعلت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب من البدن. ثم يكون حيًا باقيًا في طور آخر وإن لم يدرك كنهه...

شعور بهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى، وما عسا أن تكون عليه متي وصلت إليه، وكيف الاحتفاء، وأين سبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل، شعور بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا عن الاستقامة على المنهج الأقوم، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد.

(1) المصدر السابق ج 2 ص 394.
وضاءة الأزمات والأعصار في تقويم الأفق، وتعديل الأفكار، وإصلاح الوجدان، وتهذيب الأذهان، ولا تزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب، لا ندرى متي نخلص منه، وفي شوق إلى طمانيئة لا نعلم متي ننتهي إليها.

هذا شأنا فن تفهم عالم الشهادة، فهذا نؤول من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب؟

هل فيما بين آيدينا من الشاهد معال معبد بها إلى الغاب؟ وهل في طرق الفكر ما يوجد كل أحد إلى معرفة ما قد له أن يشعر بها، وبأن لا مدوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفzf تفصيل ما أعد له فيها، والسحنون التي لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشحنون؟ هل في أساليب النظر ما يأخذ بك إلى البلقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديه، وعقل الإنسان في غابة الغموض بالنسبة إليه؟

كلا. فإن الصلة بين العالمين تكون منقطعة في نظر العقل ومرامي المشاعر، ولا استشراق بينهما إلا فين أنت. فالنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى البلقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية. أقليس من حكمة السانع الحكيم الذي أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، علمه الكلام للفتاهم، والكتاب للتراسل - أن يجعل من مراتب النفس البشرية مرتبة يعيده لها، بمحض فضله، بعض من يضطليه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأوراحهم من الكمال ما يطلقون منه الاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكونن سره، مما لآب شرف لهم للاستشراق بأنوار علمه، أو ذهبت بعقله جالانته وعظمته، ففي معرفة على الغيب باذته، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، وكونون من مراتبهم العلمية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغاب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وقد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. ثم يتلقون من أمره أن يحذروا عن جلاله وما خفيف على العقول من شحن حضرته الرفيعة بما شاء أن يعتقدعبان فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادته الأخرى، وأن يبينون للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شائع عامة، تحدد لهم سيرهم في تكوين نفوسهم، وكبحم شهواتهم، وتعليمهم من الأعمال ما هو مناط
سعادةهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاحق عليه بأعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال، ظاهرة وباطنة، ثم يؤديهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الاقتناع بصديق الرسالة فيكونون بذلك رسلًا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرین.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاء على كل حي بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حكيرًا ولا حجلا من خلقه، يكون من رأته بالنوع الذي أجاد صنعته، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيبرتته، ويخلصه من التخبط في أمم حياته، والضلال في أفضل حالاته.»(1)

إن عقول الناس ليست سواء في معرفة الله تعالى، ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسما من قواهم، وعشر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أقسمت الوثنية عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة، وإنما قد تيسر ذلك لقليل من اختص الله بكمال العقل وثرى البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتضاء تدوى نبوي، ولو بلغ له كان أسرع الناس إلى اتباعه، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان عن وجه غير مايبلاغ في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي.

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وجة، وهو تفصيل اللانديد والألام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولؤ بوجيه ما، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه، لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور العبادات كما يرى في أعداد الركعات وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية، وكبعض الاحتفادات في الديانة المسيحية، وضروب التوسل والزهادة في الديانة المسيحية، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعمل الله أن فيه سعادته.

(1) المصدر السابق جـ 3، 4، 5، 6 و 7، 8، 9.
لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجًا في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ماهو خير له في الحياةين، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، وبالجملة في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه، ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون متزاحًا عن سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف عن العادة وما يعرف في سنة الخليفة، ويوسف بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد، فيكون الفهم عنه، والثقة بأنه يتكلم عن العلم الخبير، ميعانًا للعقل على ضبط ما تشبت عليه، أو درك ما ضعف عن إدراكه، وذلك المعين هو النبي...«(1)

■ هذه عبادات الإسلام. تنتفق على ما يليق بجمال الله، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة. فالصلاة: ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء وتضرع، وتسبيع وتعظيم، وكلها تصدع مبتكرة الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية، ويستغرق الحول، فتسخن له القلوب، وتستخيره للنفس، وليس فيها شيء يعول على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات، أو رمي الجمرات، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العملي الخبير، وليس فيه من ظاهر العين وسماحة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير.

أما الصوم: فحرصنا معظم به أمر الله في النفس، وتعرف به مقاير النعم عند فقدمها، ومكانة الإحساس الإلهي فيه التفضل به كيبي غالب الصيام كما كتب عليه الذين من قبلكم لعلكم تتقون [النفرة: 182].

أما أعمال الحج: فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهد له تمثيل المساحة بين أفراده، ولو في العمر مرة، برفع فيها الاستياز بين الغني والفقير، والصعوك والأخير، ويظهر الجمع في معرض واحد عرفة الأبدان، متجردين من أثار الصعقة، وجدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطوار والسعي والقوافل، ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الدين، وهو الذي سماهم المسلمين، واستقرار بعضهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر وينفع، وشعار هذا الإذعان الكريم في كل عمل: «الله أكبر».

(1) المصدر السابق ج. 3 ص 396, 397.
أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين؟ يضلل فيها العقل، ويتعرّض معها خلوك الصر للتنزه والتوحيد؟»(1)

(1) كلاً كلاً بيني الله لكم الآيات (البقرة: 219) معناه: قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته في الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم، وذلك بأن يوجه عقولكم إلى ما في الأشياء من المضار والمنافع (لعلكم تفكرون) فيظن لهمكم الضار منها والراحم صبره فتعلمون أنه جدير بالترك فلتكونه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة، كما يظهر لكم النافع فتطليبونه، فمن رحمته لكم لم يرد أن يعنتكم ويكفلكم ما لا تعقلون له فائدة: إراغًا لإرادةكم وعقلكم، بل أراد لكم البسر فعلكم حكم الأحكام وأسرارها، وهدكم إلى استعمال عقولكم فيها، لترتقوا بها التقوى وأرواحكم، لا لتخفوه سببًا أو تدفعوا عنه الضرر فإنه غني عنكم بنفسه، حميد بدائه، عزيم بقدرته.

إن الإسلام هادب ومرشد إلى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين(2).

(2) وإن نحن لا نحتاج على موروث مدارك الحسن والعقل إلا بالوحى الذي جاء به نبينا عليه السلام، وإننا نقف عند الوحي لا نزيد ولا ننقص(3) والصدق كذلك لا يتوقف على معرفة كيفية، فإن أكثر ما نصدق به تأديب يكين لا يعرف حقيقته وكتمه، ولا كيفية تكوينه وإيجاده(4).

(3) إن الله لا يظلم منتقلين ذريعة وإن تلك حسنة تضافها ويزدت من لذة أخرى غ창ًا (النساء: 90). وللواجئين بالكتب وبعاقين الناس كلام في الآية. أقامها على أساس مذاهبهم، فمن ذلك قول المتطرفة: إنه يجوز الظلم على الله تعالى: لأنه لو لم يكن جائزا لما تمدح بنفيه. ورد عليهم الآخرون بأنه تعالى نفى عن نفسه السنة والتفرد، وآمنوا متفقون معاً على استحالة ذلك عليه. فردوا عليهم بأن نفى الظلم كلام في أفعاله، ونفى النوم كلام في صفاته، وفرق بينهما.

(4) المصدر السابق ج: 6 ص 215.
وَهٰذَا كُلُهُ مِنِّ الْجَدِّ السَّبِيلِ الْبَاطِلِ وَالْهَيْدَانِ، وَإِدَّخَالُ الْفِلْسِفَةُ فِي الْدِينِ بِغَيْرِ عَقْلٍ وَلَا بِيَانٍ، وَمِثلهُ قُولُ بَعْضِ الْمُتَنَمِّمِينَ إِلَى الْسَّنَةِ بِجَوْزَةِ تَخْلُفُ الْوَعْيَ، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ ظَلَمًا: لَّا أَنَّ الْبَلَامَ لَا يَصِرُّ مَنَّهُ تَعَالَى، وَيَلِغُ بِهِمَا الْجَهَلُ مِنْ تَأْيِيدِهِ حَدًا إِلَى تَجْوِيزِ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَجَعَلَ هَذَا نَصْرًا لِلسَّنَةِ، وَالَّذِي قَذِفَ بِهِوَلَاءِ فِي هذِهِ المِّهَادِي الْجَدِّ وَالْمَرَاءِ لِتَأَيِّيدِ المَذَاهِبِ الَّتِي تَقْلُدُونَهَا، وَالْتَزَايَمُ كَلَّ الْقَرْبِ تَفْنِيدُ الْأَخَرِ وَإِظْهَارُ خِطْطِهِ، لَا طَلِبُ الْحَقِّ أَيْنَما ظَهَرَ، وَلَهُمْ مِثْلُ هَذِهِ الْجِهَالَاتِ الْكَثِيرَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَدِينِهِ، كَقِيْلَ المُعْتِزَّلَةُ: إِنَّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ حَسَنَ لَذَاتِهِ وَبَعْضَهَا قَبِيحٌ لَذَاتِهِ، وَيَجِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ الْأَصِلُّ مِنْ الأَمْرِينَ الْجَانِزِينَ، وَقَوْلُ بَعْضِ مِنْ لَمْ يَفْهِمُ مَسَأَلَةَ أَفْعَالِ الْعَبَادِ بِمَا يُدَلُّ عَلَى جَوْزَ الْعَبِيثِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّهُ هَذَا جَهَلٌ.

وَالَّذِي يَفْهِمُ مِنْ الآيَةِ: أَنَّ هَذَا حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِهَا وَهَيْ الْبَلَامَ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَقْعُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَىِّ لِأَنَّهُ مِنْ النَّقْصِ الَّذِي يَتَنُزِّهُ عَنْهُ، وَهُوَ ذَوُ الْكَمَالِ الْمُطَّلِقِ وَالْفَضْلِ العَظِيمِ. وَقُدْ خَلَقَ الْمَنْسَبَ مَشْعَرَ يَدْرِكُونَ بِهَا، وَعَقْوَلُ يَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى مَا لَا يَدْرُكُهُ الْحَسَنُ، وَشَرِّعَ لَهُمْ مِنْ أَحْكَامِ الْدِّينِ وَآدَابِهِ مَا لَا تَسْتَقِرُّ عَقْوَلَهُمْ بِالْوَقْصُ إِلَى مَثْلِهِ فِي هَادِيَتِهِ وَحَفْظَ مَصَالِحِهِمْ، وَجِعْلَ قُوَّائِ الْدِّينِ وَآدَابِهِ سَانِقَةً إِلَى الْخِيْرِ صَارِفَةً عَنِ الشرِّ لِتَأْيِيدِهِ بِالْوَعْيِ وَالْوَعْيَ، فَمَنْ وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَا يَضَرُّهُ وَيَوْمِهِ وَتَرْتَبِطُ عَلَيْهِ عَقْوَبَتُهُ كَانَ هُوَ الْبَلَامُ لَنَفْسِهِ; لَكِنَّ اللَّهُ لَا يَظْلَمُ أَحَدًا،"(١).

* * *

١: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٣. ٢٢٤.
وأخيراً...  
شهد شاهد من أهلها
وإذا كنا قد قدمنا في هذا الكتاب:

1 - الدراسة: التي أوجزت الحديث عن ماهية العقل في الروية الإسلامية.
وحال العقلانية عندما ظهر الإسلام. وشيوخ النزعة العقلية المؤمنة بين مذاهب الإسلام، على امتقاد تاريخ الحضارة الإسلامية - باستثناء حقبة التراجع الحضاري، التي أعطتها مرحلة الإحياء والتجديد - في عصرنا الحديث - تلك التي شهدت ظهور النزعة العقلية الإسلامية من جديد.

2 - والنصوص التراثية: التي تمثل "ديوان العقلانية الإسلامية"، كما تجزت لدى مختلف تيارات الفكر الإسلامي، عبر تاريخنا الحضاري.
فإذنا نختار هذا الكتاب بشهادتين عربيتين على عقلانية الدين الإسلامي. تلك التي ميزت هذا الدين عن سواه، حتى لقد كانت أمسي الأسماحة التي انتشر بها الإسلام. وحقق عالميته في وقت قياسي غير معهود ولا مسبوق في تاريخ انتشار الشرائع والديانات...

وهذه الشهادات الغربية قدمها وأعلنها خمسة من أعلام الفكر والفلسفة واللاهوت في الحضارة الغربية. وهم:

1 - العلامة "سير توماس أرنولد" (1864 - 1930م) أستاذ أساتذة الانتشار.
وصاحب الكتاب العمدة الذي كان ولا يزال أوّل المؤلفات التي رصدت انتشار الإسلام في العالم - كتاب (الدعوة إلى الإسلام).

2 - والبروفسور "إدوارد مونتفي" (1856 - 1937م) المستشرق الفرنسي، الذي ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية، وألف في (حاضر الإسلام مستقبله).

3 - والأب "مرانشي" (1612 - 1700م) اللاهوتاني الكاثوليكي الإيطالي، الذي نشر
لا يستطيع أي فرد أن يوضح الطابع العقلي للعُقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة. توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفسور إدوارد مونتيه (1856 - 1937 م) في العبارات التالية:

الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوعس معاني هذه الكلمة من الوجهتين الافتراضية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي تقيم العقائد الدينية على أساس من المبادئ المستمرة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانتباه. إن لدين محمد كل العقادات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. إن الإيمان بالله والآخرة - في الإسلام - يستقران في نفس المبدع على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.

(1) مونتيه: مستشرق فرنسي، ترجم القرآن إلى الفرنسية، ومن مؤلفاته (حاضر الإسلام مستقبله).
لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلال وصفاء لا يعترضه التحول. ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وفي هذا تكمن الأسباب الكثيرة التي تفسر نجاح جهود الدعاء المسلمين.

وكان من المتوقع لعقيدة محددة ككل التحدي، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس.

وغير شهادة هذا العالم الفرنسي - «مونتيس» - الخبير بالقرآن والإسلام والخبر بالكاثوليكية - يورد العلاقة سير توماس أرنولد شهادة اللاهوتي الإيطالي (أمبراطورتي) 1612 - 1700 - م - وهو الذي نشر القرآن متنًا وترجمة بالإيطالية. كما أسهم في ترجمة العهدين القديم والجديد - يورد أرنولد شهادة (أمبراطورتي) على عقلانية الإسلام، والتي يقول فيها:

«لو قارن إنسان بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشري، أو إلى الكه - من الصعوبة يمكن، إن لم تكون مستحيلة - (العقيدة المسيحية) - وبين عقيدة القرآن، لنسر من الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول...».

وغير هاتين الشهاداتتين الغربيتين على تميز الإسلام وامتيازه في العقلانية بل وترفده بها - وخاصة إذا ما قورن بالنصرانية - يورد العلاقة سير توماس أرنولد شهادات غريبة على أن هذه العقلانية الإسلامية هي السر في هذا الانتشار الذي شهدته هذه العقيدة الإسلامية...

(1869) Caetuni - يورد شهادة الأمير والمستشار الإيطالي كاثيتان - ليون - 1936 م - وهو الخبير في الإسلام والدراسات الإسلامية. وصاحب الإنجازات المتميزة في تحقيق التراث الإسلامي - التي يقول فيها: «إن انتشار الإسلام بين نصارى الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفينة المذهبية التي جلبتها الروح الهلنستية إلى اللاهوت المسيحي».
أما الشرق، الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلنتينية وبشكلًا عام على وجهة الدينية. لأنها أثقلت تعاليم المسيحية البسيطة السامية إلى عقيدة مخففة بمذاهب عريضة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعر من اليأس، بل زرع أصول العقيدة الدينية ذاتها.

فلما أهملت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التي احتلت بالغش والزييف، وغرقت بتقلبات الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والمفتوح من مثل هذه الزيت، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدأ بضربة من ضرباته كل الشكوك الثقافية. وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينذا ذلك ترك الشرق المسيح وارتقى إلى أذن دين نبي بلاد العرب.]

* وغير هذه "الشهادة الوثيقة" للكاتب على أن عقليات الإسلام هي السر في انتشاره السريع، وانتصاره على اللاعقلانية المسيحية. قدم "أرنولد Cunon Tylor" شهادة الفيلسوف الأمريكي "جون تايلور" (1753-1824) والتي يقول فيها:

- إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة في إفريقيا وآسيا.

كان أنثى اللاهوت في إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عريضة، بل أنهم حاولوا أن يحاربوها ما ساد هذا العصر من فساد يتوضح فضل العزوبية في السماء، وسمو البكورية إلى مرتبة المكانية، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الربى، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملاكية، كما كانت الطبقات العليا مخلّثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم، فآزال الإسلام، يعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس الثقوب، ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو.
الناس إلى الامتثال لأمره، والإيمان به وتقويض الأمر إليه، وأعلن أن المرء مستقل، وأن هناك حياة أخرى ويومًا للحساب، وآمن للأشياء عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصيام، وفعل الخير، وربذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزاعات الأخلاقية الضائعة وسقاطة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إجابة، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»(1).

* * *

(1) أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص 89 - 91. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النمروذي - طبعة القاهرة سنة 1970م. وانظر كتابنا (الإسلام في عيون غربية) ص 87، 88، 89، 90، 91.
المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- كتب السنة:

1 - صحيح البخاري - طبعة دار الشبع - القاهرة.
2 - صحيح مسلم - طبعة القاهرة سنة 1937.
3 - سنن الترمذي - طبعة القاهرة سنة 1937.
4 - سنن النسائي - طبعة القاهرة سنة 1976.
5 - سنن أبي داود - طبعة القاهرة سنة 1952.
6 - سنن ابن ماجه - طبعة القاهرة سنة 1972.
7 - سنن الدارمي - طبعة القاهرة سنة 1972.
8 - مسند الإمام أحمد - طبعة القاهرة سنة 1313هـ.
9 - الموطأ - للإمام مالك - طبعة دار الشبع - القاهرة.

- معاجم القرآن والسنة:

1 - المعجم المفهرس للفاظ القرآن الكريم - وضع: محمد فؤاد عبد الباقى - طبعة دار الشبع - القاهرة.
4 - مفتاح كنز السنة - وضع: وينسكي (أي) - ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقى - طبعة لاورس سنة 1391هـ سنة 1972م.
ابن نجم: (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) طبعة القاهرة سنة 1321 هـ.
(منهج السنة النبوية) طبعة القاهرة سنة 1321 هـ.
(كتاب الرد على المنطقين) طبعة دار المعارف - بيروت - بدون تاريخ.
(الفتاوى) طبعة الرياض - سنة 1381 هـ.
(فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة 1983 م.
(تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة 1902 م.
(مناهج الأدلة في عقائد الملحة) دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم.
طبعة القاهرة سنة 1905 م.

ابن منصور: (لسان العرب) طبعة دار المعارف - القاهرة سنة 1981 م.
(مقرنة الأديان) طبعة القاهرة.
(الدعوة إلى الإسلام) ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي - طبعة القاهرة سنة 1970 م.
(التبصير في الدين).
(الأفعاني) - جمال الدين: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة 1988 م.
(الأعمال الكاملة) إعداد: سيد هادي خسرو - تطوير: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة 1432 هـ.
(نهاية القاضي عبد الجبار) تحقيق: فؤاد سيد - طبعة تونس سنة 1972 م.
(كتاب الحيوان) تحقيق: عبد السلام هارون - القاهرة - الطبعة الثانية.
(رسائل الجاحظ) تحقيق: عبد السلام هارون - طبعة القاهرة.
(دراسات في حضارة الإسلام) طبعة بيروت سنة 1964م.
(مظاهر القداسة بزوايا دولة الفرنسيسكان) تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى - طبعة القاهرة سنة 1970م.
(الจรاني - الشريحة) طبعة القاهرة سنة 1938م.
(البروف - أندريه: الفلسفة وعلم الكلام) - ضمن كتاب (تراث الإسلام) ترجمة:
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي.
طبعة القاهرة سنة 1987م.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: كمال خليلى -
طبعة الكويت سنة 1989م.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد - طبعة القاهرة.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: د. صبري أبو الخير سليم - (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) طبعة القاهرة سنة 2002م.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: د. على فيهمي خشيم - (الجبانيات: أبو علي وأبو هاشم) طبعة - طرابلس - ليبيا -
سنة 1968م.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: د. أبو حامد - (الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة القاهرة - مكتبة صبيح -
بدون تاريخ.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: ملك شاقي في العقائد - طبعة القاهرة سنة 1907م.
(رسالة الغزالي إلى ملك شاقي في العقائد) طبعة القاهرة سنة 1907م.
(البروف - أندريه: كتاب الذريعة في مكارم الشرعية) تحقيق: د. أبو حامد - (الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة القاهرة -
بدون تاريخ.
فليبين فارج، يوسف كرياج: (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ترجمة: بشير السبعاوي - طبعة القاهرة سنة 1994 م.


(أدب القاضي) - طبعة بغداد سنة 1981 م.

الماوردي: (أدب الدنيا والدين) طبعة القاهرة سنة 1973 م.


وطبعة القاهرة سنة 1972 م. وطبعة القاهرة سنة 2000 م.

د. محمد عمارة: (الإسلام في عيون غربية): طبعة القاهرة سنة 2000 م.

المصوئل: (التنبيه والإشراف) طبعة بيروت.

المؤلف

الدكتور محمد عمارة

1 - سيرة ذاتية: في نقاط

* مفكر إسلامي، مؤلف، ومحقق، وعضو "مجمع البحوث الإسلامية".

بالأزهر الشريف.

* ولد بريف مصر - ببلدة "صروه"، مركز "قلين"، محافظة "كفر الشيخ".

في 27 من رجب سنة 1350 هـ - 8 من ديسمبر سنة 1931 م - في أسرة ميسورة الحال - ماديًا - تحترف الزراعة، وملتزمة دينيًا.

قبل مولده، كان والده قد نذر الله: إذا جاء المولود ذكرًا، أن يسميه محمدًا.

* وأن يبهبه للعلم الديني - أي يطلب العلم في الأزهر الشريف.

* حفظ القرآن وجوّد به "كتاب" القرية. مع تلقى العلوم المدنية الأولية.

* بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإبتدائي.

* في سنة 1364 هـ / 1945 م التحق بـ "معهد دسوق الديني الإبتدائي".

* التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على شهادة الابتدائية سنة 1368 هـ / 1949 م.

وفي المرحلة الإبتدائية - النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين.

* بدأت تتفتح وتتمنى اهتماماته الوطنية واللغوية والإسلامية، والأدبية، والثقافية.

* فشارك في العمل الوطني - قضية استقلال مصر، والقضية الفلسطينية.

* بالخطابة في المساجد، والكتابة - نثرًا وشعرًا - وكان أول مقال نشرته له صحيفة "مصر الفتاة" - بعنوان "جهاد" - عن فلسطين - في أبريل سنة 1948 م.

* وتطلع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصفة القضية الفلسطينية. لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين.
في سنة 1949، التحق بـ "معهد طنطا الأحمدي الدينى الثانوى" - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على الثانوية الأزهرية سنة 1372 هـ / 1954 م.

واصل في مرحلة الدراسة الثانوية - اهتماماته السياسية والأدبية والثقافية. ونشر شعرًا ونثرًا في صحف ومجلات "مصر الفتاة"، و"مذبب الشرق"، و"المصري"، و"الكاتب". وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة 1936 م في سنة 1372 هـ.

وفي سنة 1374 هـ / 1954 م التحق بـ "كلية دار العلوم" - جامعة القاهرة.

وفيها تخرج، ونال درجة "الليسانس" في اللغة العربية والعلوم الإسلامية - ولم تأخر تخرجه - بسبب نشاطه السياسي - إلى سنة 1375 هـ / 1956 م.

تواصل في مرحلة الدراسة الجامعية - نشاطه الوطني والأدبى والثقافى. فشارك في "المقاومة الشعبية"، ومنطقة قناة السويس، إبان مقاومة الغزوة الثالثة لمصر سنة 1375 هـ / 1956 م.

ونشر المقالات في صحيفة "المساء" - المصرية - ومجلة "الآداب".

البيروتية. وألف ونشر أول كتابه عن "القومية العربية" سنة 1378 هـ.


وتناولت كتابه - التي تجاوزت المائتين - السمات المميزة للحضارة الإسلامية. والموضوع الحضاري الإسلامي. والمواقفة مع الحضارات الغازية والمعادية. وتيارات العلمانية والتغريب. وصفحات العدل الاجتماعي الإسلامي والعقليانية الإسلامية.

* وحاول وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة.*

* وحقق عددًا من تصويت التراث الإسلامي - القديم منه والحديث.*


أسهم في تحرير العديد من الدوريات الفكرية المختصة. وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية في وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما. كما أسهم في تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة، مثل: «موسوعة السياسة»، و«موسوعة الحضارة العربية»، و«موسوعة الشروق»، و«موسوعة المفاهمات الإسلامية»، و«الموسوعة الإسلامية العامة»، و«موسوعة الأعلام» إلخ.

* نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، منها: "المجلس الأعلى للlestثون الإسلامية" - بمصر، و"المعهد العالمي للفكر الإسلامي" - بواشنطن، و"مركز الدراسات الحضارية" - بمصر، و"المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية" - مؤسسة آل البيت - بالأردن، و"مجمع البحوث الإسلامية" بالأزهر الشريف.*

• جاوزت أعماله الفكرية - تأليفًا وتحقيقًا - مائتي كتاب، وذلك غير ما نشرته في الصحف والمجلات.
• ترجم العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية، مثل:
  • التركية، والمالاوية، والفارسية، والأوردية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية،
  • والإسبانية، والألمانية، والألبانية، والبوسنية.
• الاسم - رباعيًا: محمد عمارة مصطفى عمارة.
• العنوان: جمهورية مصر العربية - 13 ب شارع كورنيش النيل - أغاخان
  • القاهرة - هاتف 22056661 - فاكس 22056662.

2 - ثبت بأعماله الفكرية

أ - تأليف:

1 - معالم المنهج الإسلامي - دار الشرق - القاهرة سنة 2008م.
2 - الإسلام والمستقبل - دار الشرق - القاهرة سنة 2008م.
3 - العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار الشرق - القاهرة سنة 2008م.
4 - معارك العرب ضد الغزاة - دار الرشاد - القاهرة سنة 1998م.
5 - الغزارة الجديدة على الإسلام - دار نهضة مصر - القاهرة سنة 2008م.
6 - جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض - دار الرشاد - القاهرة سنة 1997م.
8 - الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ - دار الرشاد - القاهرة سنة 1997م.
11 - الإبداع الفكرى والخصوصية الحضارية - دار نهضة مصر - القاهرة سنة 2007م.

12 - الدكتور عبد الزاق السنهوري باشا: إسلامية الدولة والمدنية والقانون - دار الرشاد - القاهرة سنة 1999م.


14 - الإسلام وفلسفة الحكم - دار الشروق - سنة 2006م.


16 - الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق - سنة 2005م.


18 - الإسلام والثورة - دار الشروق - سنة 2006م.


20 - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية - دار الشروق - سنة 2007م.

21 - هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟ - دار الشروق - سنة 2007م.

22 - سقوط الغلو العلماني - دار الشروق - سنة 2002م.


24 - الطريق إلى البقظة الإسلامية - دار الشروق - سنة 1990م.


26 - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري - دار الشروق - سنة 2005م.


28 - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية - دار الشروق - سنة 2005م.


30 - مسلمون ثوار - دار الشروق - سنة 2006م.

31 - التفسير الماركسي للإسلام - دار الشروق - سنة 2005م.
22 - الإسلام بين التنوير والتزوير - دار الشروق - سنة 2002 م.
24 - الإسلام والأمن الاجتماعي - دار الشروق - سنة 2007 م.
25 - الأصولية بين الغرب والإسلام - دار الشروق - سنة 2006 م.
31 - عبد الرحمن الكواكبى - دار الشروق - سنة 2007 م.
32 - أبو الأعلى المودودى - دار الشروق - سنة 1987 م.
33 - رفاعة الطهطاوى - دار الشروق - سنة 2007 م.
34 - على مبارك - دار الشروق - سنة 2007 م.
36 - التحرير الإسلامي للمرأة - دار الشروق - سنة 2002 م.
37 - الإسلام في عيون غربية - دار الشروق - سنة 2006 م.
38 - الشريعة الإسلامية والمعرفة الغربية - دار الشروق - سنة 2002 م.
40 - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام - نفسية مصر - القاهرة - سنة 2006 م.
41 - الإسلام وتحديات العصر - نفسية مصر - سنة 2004 م.
42 - الإسلام في مواجهة التحديات - نفسية مصر - سنة 2006 م.

182
76 - السنة النبووية والمعرفة الإنسانية - نهضة مصر - سنة 2000م.
77 - خطر العولمة على الهوية الثقافية - نهضة مصر - سنة 1999م.
78 - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية - نهضة مصر - سنة 2000م.
79 - في التحرير الإسلامي للمرأة - نهضة مصر - سنة 2002م.
80 - المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية - نهضة مصر - سنة 2003م.
81 - الغرب والإسلام: افترازات لها تاريخ - نهضة مصر - سنة 2006م.
82 - السماحة الإسلامية - نهضة مصر - سنة 2007م.
84 - أزمة الفكر الإسلامي الحديث - نهضة مصر - سنة 2006م.
87 - شبهات حول القرآن الكريم - نهضة مصر - سنة 2002م.
88 - تحليل الواقع بمنهاج العادات المزمونة - نهضة مصر - سنة 1999م.
89 - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين - نهضة مصر - سنة 2000م.
90 - الظاهرة الإسلامية - المختار الإسلامي - سنة 1988م.
91 - الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية - نهضة مصر - سنة 2006م.
92 - إسلاميات السنوهرى باشا - دار الوفاء - سنة 2006م.
93 - النص الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية - نهضة مصر - سنة 2007م.
94 - أزمة الفكر الإسلامي الحديث - نهضة مصر - سنة 2007م.
95 - المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد - دار المعارف - سنة 1983م.
96 - العطاء الحضاري للإسلام - مكتبة الشرق الدولي - سنة 2004م.
100 - ثورة الزنى - دار الوحدة - سنة 1980 م.
102 - الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة 1979 م.
103 - الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة 1980 م.
105 - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين - دار ثابت - القاهرة - سنة 2007 م.
113 - القومية العربية وموارد أمريكا ضد وحدة العرب - دار الفكر - القاهرة - سنة 1988 م.
115 - ظاهرة القومية في الحضارة العربية - الكويت - سنة 1983 م.
118 - العدل الاجتماعي لعمرو بن الخطاب - دار الثقافة الجديدة - سنة 1978 م.
119 - الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب - دار الثقافة الجديدة - سنة 1978 م.
120 - إسرائيل هل هي سامية؟ دار الكاتب العربي - القاهرة - سنة 1988 م.
122 - الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب - سنة 1997 م.
129 - العروبة في العصر الحديث - دار الوحدة - سنة 1984 م.
130 - الأمية العربية وقضايا الوحدة - دار الوحدة - سنة 1984 م.
136 - مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية - مكتبة الشرق الدولي - القاهرة - سنة 2004 م.
137 - الغرب والإسلام: أين الخطأ؟ وأين الصواب؟ - مكتبة الشرق الدولي - سنة 2004 م.
139 - في فقه الحضارة الإسلامية - مكتبة الشروق الدولية - سنة 2003م.
140 - الدراسات التاريخية وتحديات الواقع المعاصر - مكتبة الشروق الدولية - سنة 2005م.
141 - في المشروع الحضاري الإسلامي - مركز الراية - جدة - سنة 2004م.
142 - شخصيات لها تاريخ - مركز الراية - جدة - سنة 2004م.
143 - شبهات وإجابات حول القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة 2001م.
144 - الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة 2001م.
145 - فننة التكبير بين الشيعة والوهابية والصوفية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة 2006م.

ب - دراسة وتحقيق:
149 - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة 1979م.
151 - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى - دار الشروق سنة 2007م.
152 - الأعمال الكاملة لقاسم أمين - دار الشروق - القاهرة - سنة 2006م.


159 - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان - للشيخ محمد الخضر حسين - نهضة مصر - سنة 1999 م.


- مناظرات:


165 - المواجهة بين الإسلام والعلمانية - دار الآفاق الدولية - القاهرة - سنة 1413 هـ.

166 - تهافت العلمانية - دار الآفاق الدولية - القاهرة - سنة 1413 هـ.

د - بالاشتراك مع آخرين:


170 - عمر بن الخطاب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة 1972 م.
174 - دليل الإمام إلى تجديد الخطاب الديني - وزارة الأوقاف سنة 2007 م.

صدر حديثاً:
176 - حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكوكين - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة 2002 م.
177 - الشيخ الشهيد أحمد ياسين - وفاته الجهاد على أرض فلسطين - مركز الإعلام العربي - القاهرة - سنة 2004 م.
180 - مقام العقل في الإسلام - نهضة مصر - سنة 2008 م.
181 - الفتوحات الإسلامية: تحرير، أم تدمير؟ - تحت الطبع.
182 - فوائد البنوك: خلال أم حرام؟ - تحت الطبع.
183 - حوار مع ثقافة العنف - تحت الطبع.
184 - القرآن يتحدى - تحت الطبع.
185 - الانتماء الحضاري: للغرب أم الإسلام؟ - تحت الطبع.
186 - من أعلام الإحياء الإسلامي - مكتبة الشروق الدولية - 2006 م.
189 - من أعمال الأحياء الإسلامي - مكتبة الشروق الدولية - سنة 2006.
190 - الإصلاح الديني في القرن العشرين - نهضة مصر - سنة 2007.

سلسلة (هذا هو الإسلام) - مكتبة الشروق الدولية.

194 - الموقف من الديانات الأخرى، الدين والدولة - طبعة القاهرة - سنة 2006.

سلسلة (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) - مكتبة الإمام البخاري.

197 - رفع السلام عن شيخ الإسلام ابن تيمية سنة 2007.
198 - الفارق بين الدعوة والتنصير سنة 2007.
200 - صيحة تلحم من فترة التكزير سنة 2008.
201 - مقومات الأمن الاجتماعي في الإسلام سنة 2008.
202 - في النظام السياسي الإسلامي، الخلافة والدولة المدنية سنة 2008.
204 - الوسطية في العلاقة بين الحضارات سنة 2008.
207 - مقام العقل عند الإمام محمد عبده سنة 2008.
الفهرس

تقريم ........................................................................................................ ۳

القسم الأول

۱- العقل.. ماذا يعني؟..................................................................... ۷
۲- حال العقل والعقلانية عند ظهور الإسلام.............................. ۱۴
۳- التطور المبكر للعقلانية الإسلامية........................................ ۲۰
۴- مكانة العقل والعقلانية في تراث الإسلام......................... ۲۷
۵- تراجع العقلانية الإسلامية......................................................... ۴۲
۶- عقلانية الإحياء الإسلامي الحديث........................................ ۴۶

القسم الثاني

نصوص تراثية في العقلانية الإسلامية

تمهيد ................................................................................................. ۵۵
۱- الحارث بن أسد المحاسبي........................................................... ۶۷
۲- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي.................................................. ۸۸
۳- أبو الوليد ابن رشد................................................................. ۱۰۸
۴- شيخ الإسلام ابن تيمية.............................................................. ۱۱۴
۵- الإمام الشافعي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى...................... ۱۴۰
۶- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده........................................ ۱۴۴

وأخيرًا شهد شاهد من أهلها .................................................... ۱۶۷
المصادر والمراجع ......................................................................... ۱۷۲
أحدث إصدارات

الأساتذة الدكتور
محمد عمارة

 ضمن سلسلة (في التنوير الإسلامي)

1. الصحوة الإسلامية في عيون غربية.
2. العرب والإسلام.
3. أبو حيان التوحيدى.
4. ابن رشد بين الغرب والإسلام.
5. التعاون الثقافي.
6. الدولة والرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
7. صراع القلم بين الغرب والإسلام.
8. يوسف الفرقانى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكري.
9. عندما دخلت مصر في دين الله.
10. الحركات الإسلامية ورؤية تقدمية.
11. المنهاج العلمي.
12. النموذج الثقافي.
13. تجديد الدنيا وجديد الدين.
14. الشرواط والممكنات في اليقظة الإسلامية الحديثة.
15. كيف كتب الإسلام وأصول الحكم.
16. التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد الإسلامي؟
17. إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.
18. الخضارات العالمية تدافع؟ أم صراع؟
19. الثورة الفرنسية في المرآة.
20. الأقليات الدينية والقومية تنوع.
21. هوية، أم تفكيك واختراق?
22. الخطر اليهودية على الهوية الثقافية.
23. الغباء والموسيقى خلال أم حرام؟
24. هل المسلمين أمة واحدة؟
25. السنة والبدعة.
26. المثل والواقعي معهاج الامامات المرمدة.
27. القيمة بين الهدوى والإسلام.
28. مقارنة المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهداء ألماني).
29. السنة النبوية والمعرفة الإنسانية.
30. الخروج بين الإسلاميين والعلمانيين.
31. مستقبلنا بين العمالية الإسلامية والعلمانية الغربية.
32. السنة التشريعة وغير التشريعة.
33. شهادات حول الإسلام.
34. المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية.
35. شهادات حول القرآن الكريم.
36. في التحرير الإسلامي للمرأة.
37. روح الحضارة الإسلامية.
38. العرب والإسلام: أفرع لها تاريخ.
39. السماحة الإسلامية.
40. الشيخ عبد الرحمن الكواكبى هل كان علمانياً؟
41. أزمة الفكر الإسلامي المعاصر.
42. إسلامة المعرفة ماذا يعني؟
43. الإسلام وضرورة التغيير.
44. النقص الإسلامي بين التاريكيية والاجتماع ووالحدود.
45. الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية.
إصدارات أخرى
للأستاذ الدكتور
محمود عمارة

- معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام.
- القدس الشريف رمز الصراع وبوابات الانتصار.
- الوسيط في المذاهب والتصوفات الإسلامية.
- الإصلاح بالإسلام.
- الإسلام والمفاهيم المعاصرة.
- الإسلام في مواجهة التحديات.
- الاستقلال الحضاري.
- القارة الجديدة على الإسلام.
- مقام العقل في الإسلام.
مقام العقل في الإسلام

قبل الإسلام – إبان طفولة العقل البشرى – كانت المعجزات مادية، تدهش العقل، فشلله على التفكير.

وكогда بلغت الإنسانية سن الرشد، جاء القرآن الكريم معجزة عقلية، تستحث العقل على التفكير في الكون والتاريخ والمصير.. وشئون الدنيا والدين.

فمن القرآن الكريم نبعت العقلانية الإسلامية .. وللدفاع عن الإيمان كانت رسالة العقل في حضارة الإسلام..

إذا كانت الحداثة الغربية قد ألهِت العقل .. وجعلته ثورة على اللاهوت ..

إذا كانت المذاهب الباطنية قد تنكرت للعقل والنقل جميعاً.

فلقد أبدع الإسلام عقلانية مؤمنة، مؤسسة على الوحي والشرع معًا. وبعبارة حجة الإسلام الغزالي: » فالعقل مع الشرع نور على نور.»

وفي هذا الكتاب، سيدهش الكثيرون عندما يرون اجتماع كل المذاهب الإسلامية المعترفة - من الصوفية .. إلى السلفية .. إلى الفقهاء والفلاسفة .. على إعلاء مقام العقل .. والمؤاخذة بين صريح المعقول وصحيح المنقول.

إنه "ديوان العقلانية الإسلامية" .. نقدمه للعلماء والقراء.

الناشر